نساء تحدث عنهن القرآن

تأليف

فضيلة الإمام الأكبر

محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

السنة الخامسة والثلاثون - الكتاب الرابع - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الأزهر الشريف

سلسلة البحوث الإسلامية

نساء

يحدث عنهن القرآن

تأليف

فضيلة الإمام الأكبر

محمد سيد طنطاوي

شيخ الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وشفيعنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه ومن والاه ... وبعد ،،،

فهذه بحوث خاصة بالنساء اللائى تحدث عنهن القرآن الكريم ، وأخرى خاصة بأمهات المؤمنين .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل هذه البحوث خالصة لوجهه الكريم ، ونافعة لعباده المؤمنين والمؤمنات .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الأستاذ الدكتور

محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر الشريف

١ ـ « سارة » زوجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

إن الذى يتدبر القرآن الكريم يتبين له بوضوح : أن القرآن كما فصَّل الحديث عن جوانب من خصائص الرجال ، ومن صفاتهم ، ومن أحوالهم ، ومما أعطاه لهم من حقوق ، ومما كلفهم به من واجبات . . .

وفصَّل ـ أيضاً ـ الحديث عن جوانب من خصائص النساء ، ومن صفاتهن ، ومن أحوالهن ، ومن عواطفهن ، ومما أعطاه لهن من حقوق ، ومما كلفهن به ـ سبحانه ـ من واجبات . .

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين الصفات الحميدة التى توفرت فى الجنسين فى آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ
اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]

---

١ ـ سورة الأحزاب . الآية : ٣٥ .

فهذه عشر مناقب كريمة جمع الله - عز وجل - فيها بين الرجال الفضلاء، والنساء الفضليات، وبشر الجميع بالمغفرة التامة وبالأجر العظيم.

ومن النساء اللاتي تحدث القرآن عنهن: السيدة «سارة» - رضى الله عنها - امرأة خليل الله «إبراهيم» - عليه السلام -

ومن الآيات القرآنية التي وردت في ذلك قوله - تعالى -:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ
يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾(1)

---

1 - سورة هود. الآيات: ٦٩ - ٧٣.

والمقصود بالرسل في قوله - تعالى -: ﴿ ولقد جاءت رسلنا . . . ﴾ : جماعة من الملائكة أرسلهم الله - تعالى - إلى إبراهيم - عليه السلام - ليبشروه، وليبشروا امرأته «سارة» بأنها ستلد ابنهما «إسحاق».

وقد اختلفت الروايات في عدد هؤلاء الرسل من الملائكة الذين جاءوا لبشارة إبراهيم - عليه السلام - فعن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وقيل: أحد عشر.

والحق: أنه لم يرد في عددهم نقل صحيح يعتمد عليه، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى -

ولفظ «البشرى»: اسم للخبر السار، فهي أخص من لفظ الخبر، وسميت هذه الكلمة بهذا الاسم، لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه، وعلى هيئته.

والمعنى: والله لقد أرسلنا عدداً من ملائكتنا إلى عبدنا ورسولنا إبراهيم - عليه السلام - ليبشروه هو وامرأته «سارة» بأن الله - تعالى - بفضله وكرمه - سيرزقهما بغلام عليم هو «إسحاق» - عليه السلام -

ثم قص علينا - سبحانه - جانباً من الحوار الذي دار بين إبراهيم - عليه السلام - وبين هؤلاء الرسل، فقال: ﴿ . . . قالوا سلاما قال سلام . . . ﴾ .

أي: قال الرسل لإبراهيم: نسلم عليك سلاماً، فرد عليهم بقوله: وعليكم مني السلام والأمان والإكرام، وقد أتبع هذا القول الطيب

بالعمل الذى يدل على حفاوة إبراهيم - عليه السلام - بضيوفه، كما نرى ذلك بوضوح فى قوله - سبحانه -: ﴿ ... فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ .

أى: أن إبراهيم - عليه السلام - بعد أن رد على تحيتهم بأحسن منها، سارع إلى أهله فأحضر لهم لكى يأكلوا، عجلاً سميناً مشوياً على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض، التى تحيط بها النار من كل جانب.

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده، وعلى عظيم سخائه هو وأهل بيته، فإن من آداب الضيافة تعجيل التحية للضيف.

ثم قص علينا القرآن حال إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال - تعالى -: ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

والمعنى: فحين شاهد إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الشهى الذى قدمه لهم، نفر منهم، وشعر فى نفسه من جهتهم بالخوف والوجل، لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - دون إبداء عذر مقنع - يؤدى إلى الإحساس بأن

هذا الضيف ينوى شراً وسوءاً به، والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك ...

ولذا بادر الرسل من الملائكة بقولهم لإبراهيم عندما لاحظوا ماظهر عليه من وجل وخوف: يا إبراهيم، لا تخف فإنا لسنا ضيوفاً من البشر، وإنما نحن رسل من الله ـ تعالى ـ أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن امرأة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت عن قرب تَتَبَّع ما دار بين زوجها وبين ضيوفه؛ اهتماماً بشأن زوجها، ولعلها سمعت جانباً من الحوار الذى دار بينه وبينهم، وسمعت بشارتهم لزوجها بأن الله ـ تعالى ـ سيرزقه من امرأته بغلام عليم، فقد قال ـ تعالى ـ فى موضع آخر:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ
عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا
مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾[1]

وقد أشار القرآن إلى جانب من كل ذلك فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾.

---

١ ـ سورة الحجر . الآيات : ٥١ ـ ٥٣ .

والمقصود بامرأته كما يقول الإمام القرطبي : «سارة بنت هاران ابن ناحور بن شاروع بن أرغوبن فالغ، وهي ابنة عم إبراهيم - عليه السلام - » .

والمقصود بقيامها - كما سبق أن أشرنا - تحركها وتتبعها لما يدور بين زوجها وبين ضيوفه . . .

والمقصود بالضحك هنا : حقيقته . أي : فضحكت سرورًا وابتهاجًا بسبب زوال الخوف عن زوجها إبراهيم، وبسبب بشارة الملائكة لهما بغلام عليم . . .

والمعنى : وفي أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لاتخف، وفي أعقاب ما بشروه به، كانت امرأته «سارة» قائمة بالقرب من زوجها وضيوفه، فلما سمعت ما يسرها مما قالته الملائكة لزوجها «ضحكت» سرورًا وفرحًا « فبشرناها » - بقدرتنا وفضلنا - بمولودها « إسحاق » كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله «يعقوب» فهي بشارة مضاعفة، إذ أن هذه البشارة تشير إلى أنها ستعيش حتى ترى ابنها وقد بلغ وتزوج وأنجب يعقوب، فمن فضل الله عليها أنه منحها زيادة في عمرها حتى ترى حفيدها . . .

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس من الحمل، ولم يكن لها ولد، ثم تأتيها مثل هذه البشارة، يهتز كيانها، ويزداد

عجبها، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستبعاد: ﴿ ... يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب ﴾.

وكلمة « ياويلتا » تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه، والمقصود بها هنا: التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، وهى كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه.

أى: قالت « سارة » امرأة إبراهيم بدهشة وتعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد والحفيد: ياللعجب أألد وأنا امرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ﴿ وهذا بعلى ﴾ أى: زوجى إبراهيم ﴿ شيخاً ﴾ كبيراً متقدماً فى السن، إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة، لشئ عجيب فى مجرى العادة عند النساء!!.

قال الإمام الآلوسى - رحمه الله -: « وكان سن إبراهيم فى ذلك الوقت - كما جاء فى بعض الآثار - مائة سنة، وكان سن امرأته تسعين سنة ».

وقد رد الرسل من الملائكة على السيدة « سارة » بقولهم: أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة ؟

لا لا يصح منك أن تستبعدى ذلك، لأن قدرة الله لايعجزها شئ.

فالاستفهام هنا المراد به: إنكار تعجبها واستبعادها البشارة وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة.

وقوله - عز وجل -: ﴿ ... رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾: حكاية لما قالته الملائكة لها، زيادة فى سرورها وفى إدخال الطمأنينة على قلبها.

أى: رحمة الله الواسعة، وبركاته وخيراته الكثيرة عليكم يا أهل هذا البيت الكريم، وهو بيت خليل الله إبراهيم إنه - عز وجل - مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده، ولسعة كرمه وإحسانه عليهم.

وشبيه بهذه الآيات الكريمة فى مدح سيدنا إبراهيم وفى مدح امرأته «سارة» قوله - تعالى - فى سورة «الذاريات»:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾[1]

---

١ - سورة الذاريات. الآيات: ٢٤ - ٢٨.

وقد افتتحت هذه القصة هنا بأسلوب الاستفهام، للإشعار بأهميتها، وتفخيم شأنها، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى.

والمعنى: أننا - أيها الرسول الكريم - نَقُصّ عليك جانباً من قصة عبدنا ورسولنا إبراهيم مع ضيوفه من الملائكة، وقت أن دخلوا عليه فحيوه بالسلام، فردَّ عليهم بأحسن من تحيتهم مع عدم معرفتهم، ومع ذلك فقد أسرع فى خفية فقدم لهم طعاماً شهياً، وحثهم على الأكل منه إلا أنهم لم يأكلوا، فأضمر فى نفسه الخوف منهم، فقالوا له: لا تخف يا إبراهيم وبشروه بغلام له سيولد من امرأته، وسيكون كثير العلم، وهذا الغلام هو إسحاق - عليه السلام -

ثم يقص القرآن ما كان من «سارة» امرأة إبراهيم عندما سمعت بهذه البشارة فقال - تعالى - :

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾(١)

أى: فأقبلت امرأة إبراهيم - عليه السلام - وهى تصيح فى تعجب واستغراب من هذه البشرى، فضربت بيدها على وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟!

فقالت الملائكة لها: لا تتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن، فإن هذا الحكم هو حكم ربك الحكيم فى كل أقواله وأفعاله،

١ - سورة الذاريات . الآيات : ٢٩ - ٣٠ .

العليم بأحوال خلقه، وهو ـ سبحانه ـ إذا أراد شيئاً ﴿ أن يقول له كن فيكون ﴾.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في فضل السيدة «سارة» ـ رضي الله عنها ـ ماجاء في الصحيحين: « من أن سيدنا إبراهيم عندما كان في سفر ومعه زوجته « سارة » وكانت من أجمل وأحسن الناس، ووصل إلى أرض بها حاكم ظالم جبار، قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لامرأته «سارة » : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فأنت أختي في الإسلام، وأنا لا أعلم في هذه الأرض مسلماً غيري وغيرك.

ورأى بعض أهل ذلك الجبار «سارة» فذهب إليه وقال له: لقد قدمت أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون لغيرك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده ـ أي: فشلت يده ـ فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى... ثم دعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي... فعادت إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما رآها وانتهى من صلاته قال لها: ماالخبر؟ فقالت: كف الله يد الفاجر عني...».

ومن هذه الآيات والأحاديث نرى جانباً من فضل السيدة «سارة»

التى منحها الله ـ تعالى ـ العفاف والطهارة، والرعاية الكريمة لحقوق زوجها، والحرص على ما يرضيه، والسرور لما يسره، والتأثر الذى يزيد على تأثر الرجال بما يخالف المألوف والعادات، وهذا شأن معظم النساء فى كل زمان ومكان، ويكفى للأدلة على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾.

٢ - أم موسى - عليه السلام -

حديث القرآن الكريم عن « أم موسى » - عليه السلام - حديث زاخر بالعظات والعبر لكل ذى عقل سليم، ولكل صاحب فطرة نقية، ومشاعر سوية ...

حديث « أمٍّ » تُحس وجنينها فى بطنها، بأن أخطاراً جسيمة تستقبل هذا الجنين، فيشغلها مصيره عن كل شئ فى حياتها ...

حديث « أمٍّ » تعلم أن فرعون الذى قال لقومه: «أنا ربكم الأعلى» قد أصدر أمره بذبح كل مولود من الذكور، تلده امرأة من بنى إسرائيل ...

حديث يرى منه كل عاقل أن قدرة الله - تعالى - فوق كل قدرة، وأن مشيئته فوق كل مشيئة، وأن ما يحذره الطغاة الجبارون لاوزن له أمام إرادته وحكمته - عز وجل - بل إنه - سبحانه - جعل الناس يشاهدون بأبصارهم كيف أن قدرته - تعالى - قد هيأت لنبى من أنبيائه الكرام، أن يعيش فى بيت هذا الطاغية، وأن يكون هلاك هذا الطاغية، على يد هذا النبى الكريم.

حديث يهز المشاعر والعواطف، ويهدى النفوس والعقول إلى كل خير وبر، فيذكر ما ألهمه الله - عز وجل - لأم موسى - عليه السلام - عند ولادته، وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون لموسى - عليه السلام - وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق

كادت بسببهما أن تهرول إلى بيت فرعون، لتقول للجميع: هذا ابني فاحذروا أن تمسوه بسوء ...

وكيف أن الله - تعالى - ربط على قلبها، ورد إليها وليدها، بعد أن خلا قلبها من كل شئ سوى مصير ابنها.

يصور القرآن الكريم بأسلوبه البليغ المؤثر البديع هذه المعاني فيقول:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1]

و «أم موسى» قيل: إن اسمها «محيانة» بنت يصهر بن لاوى.

والوحى إلى أم موسى - عليه السلام - يجوز أن يكون عن طريق الإلهام، كما فى قوله - سبحانه -: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ... ﴾ ويجوز أن يكون عن طريق المنام، أو عن طريق إرسال ملك من الملائكة أخبرها بذلك.

قال الإمام الآلوسى - رحمه الله -: «والظاهر أن الإيحاء إليها كان عن طريق إرسال ملك، ولا ينافى ذلك الإجماع على عدم نبوتها، لما أن الملائكة - عليهم السلام - قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم، والظاهر - أيضاً - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة ...».

---

١ - سورة القصص. الآية: ٧.

والخوف: حالة نفسية تعترى الإنسان، فتجعله مضطرب المشاعر، لتوقعه حصول أمر يكرهه.

والحزن: اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع مايكرهه: كموت عزيز لديه، أو فقده لشئ يحبه.

وفى الكلام حذف يعرف من السياق، والتقدير: وحملت أم موسى - عليه السلام - به، فى الوقت الذى كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل بعد ولادتهم، ويستبقى النساء منهم، وأخفت حملها عن غيرها، فلما وضعته، أصابها ما أصابها من خوف وفزع على مصير ابنها، وهنا ألهمناها بقدرتنا وإرادتنا، وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه فى خفاء وكتمان ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ من فرعون وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل.

وقوله - سبحانه - : ﴿ فألقيه فى اليم ﴾ معناه: فإذا خفت عليه من فرعون وحاشيته، فضعيه فى صندوق واقذفى به فى البحر، والمراد به هنا: نهر النيل بمصر، وسمى بحر لاتساعه، وإن كان الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة.

وقوله - سبحانه -: ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ أى: ولا تخافى عليه من حصول مكروه له، ولا تحزنى لمفارقته لك، فهو فى رعايتنا وحمايتنا، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه، فلا خوف عليه ولا حزن.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ : تعليل للنهى عن الخوف والحزن، وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها، وسيكون من رسل الله ـ عز وجل ـ.

أى : اطمئنى يا أم موسى، إن ربك سيرد إلى أحضانك ابنك، وسيجعله ـ سبحانه ـ من رسله الكرام .

قال صاحب الكشاف : « فإن قُلتَ : ما المقصود بالخوفين فى الآية حتى أوجب ـ سبحانه ـ فى أحدهما ونهى عن الآخر ؟

قُلتُ : أما الأول : فالخوف عليه من القتل، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته، فَيَنمُّوا عليه.

وأما الثانى : فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع فى يد بعض العيون المبثوثة من جهة فرعون فى تعقب الأولاد الذكور.

فإن قُلتَ : ما الفرق بين الخوف والحزن؟

قُلتُ : الخوف غَمٌّ يلحق الإنسان لشئ متوقع ، والحزن : غَمٌّ يلحقه لشئ وقع، فنهاها الله عنهما جميعاً، وأمَّنها بالوحى إليها، ووعدها ـ سبحانه ـ بما يُسلِّيها، وبما يطمئن قلبها، وبما يملؤها غبطة وسروراً، وهو رده إليها، وجعله من المرسلين ».

وهكذا نجد الآية الكريمة، قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها فى بيان قدرة الله ـ تعالى ـ وفى رعايتها لمن يريد ـ سبحانه ـ رعايته.

ولقد ذكر العلماء أن عالمًا من علماء اللغة والأدب وهو «الأصمعي» سمع امرأة تقول شعرًا حكيمًا فأثنى عليها ومدحها، فقرأت عليه هذه الآية الكريمة ثم قالت له: أبَعد هذه الآية الكريمة فصاحة؟ لقد اشتملت هذه الآية على أمرين وهما: «أرضعيه فألقيه» وعلى نهيين وهما: «ولاتخافى ولا تحزنى» وعلى خبرين وهما: «إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» وعلى بشارتين فى ثنايا الخبرين وهما: «الرد والجعل المذكوران».

والحق أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان من الحكم الحكيمة، ومن الهدايات القويمة التي من شأنها أن تهدى الحائر، وتغرس فى قلبه الاطمئنان بأن قدرة الله لا يعجزها شئ.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهراً آخر من مظاهر قدرته وحكمته، وكيف أنه - سبحانه - ينفذ إرادته ومشيئته، فيجعل الظالم الفاجر المغرور يرضى أن يعيش فى بيته من سيكون سبباً من هلاكه، فقال - تعالى -:

﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾(1)

---

١ - سورة القصص . الآية : ٨ .

والالتقاط معناه: وجود الشئ والحصول عليه دون طلب ولابحث، ودون قصد أو جهد.

والمقصود بآل فرعون: جنوده وأتباعه الذين عثروا على الصندوق الذى كان فى البحر وبداخله موسى - عليه السلام - فانتشلوه من البحر وحملوه إلى فرعون ليقول كلمته فى هذا الطفل الذى بداخله.

واللام فى قوله - سبحانه -: ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ... ﴾ هى التى يسميها بعض النحويين بلام العاقبة.

قال الإمام القرطبى - رحمه الله -: « قوله - تعالى -: ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدى إلى كونه عدوًا لهم وحزنـًا فى المستقبل، فاللام فى ليكون، هى لام العاقبة والصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكانت عاقبة ذلك أن كان لهم عدوًا وحزنـًا، فذكر الحال بالمآل، كما فى قول الشاعر:

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أى: فعاقبة البناء: الخراب، وإن كان فى الحال مفروحـًا به.

ويرى بعض النحويين أن اللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليكون ﴾ يصح أن تكون للتعليل، بمعنى أن الله - تعالى - قد سخر بمشيئته وإرادته فرعون وحاشيته، لالتقاط موسى - عليه السلام - ليجعله

لهم مصدر عداوة وحزن، فكأنه - سبحانه - يقول: قدّرنا عليهم التقاطه بحكمتنا وقدرتنا، ليكون لهم في مستقبل الأيام عدواً وحزناً.

وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: « إذا نظرنا إلى السياق نرى أن اللام هنا للتعليل، لأن المعنى: أن الله - تعالى - قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم في المستقبل عدواً وحزناً، فيكون التعليل في إبطال حذرهم أبلغ ».

ومع وجاهة الرأيين، إلا أننا نميل إلى كون اللام هنا للتعليل، لأنه - كما قال الإمام ابن كثير - أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولأن قوله - تعالى -: ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ يشير إلى أن اللام للتعليل.

ولفظ ﴿ خاطئين ﴾ مأخوذ من الخِطْء - بكسر الخاء وسكون الطاء - بمعنى: ارتكاب الذنب الكبير.

والمعنى: ونفذت أم موسى - عليه السلام - ما أوحيناه إليها، فأرضعت وليدها موسى، ثم بعد أن شعرت بالخوف عليه، وضعته في صندوق وألقت به في نهر النيل، فالتقطه آل فرعون من النيل، وقدموه إلى فرعون، وقد فعل - سبحانه - ذلك بقدرته وحكمته، ليكون هذا الوليد مصدر هلاك وغمّ وحزن وعداوة لفرعون وبطانته، لأنهم جميعاً قد ارتكبوا أقبح وأشنع ألوان الشرك والظلم والعدوان.

ثم قص علينا القرآن الكريم كيف أن امرأة الطاغية فرعون، قد وقفت سداً منيعاً لحماية هذا الوليد، فدافعت عنه لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، ولكن بالقلب العطوف، وبالنفس الرحيمة، وبالمحبة الحانية، وهيأتها قدرة الخلاق العليم لتكون حصناً لموسى - عليه السلام - من أن تمتد إليه يد بسوء ...

فقال - تعالى -:

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

وامرأة فرعون - كما يقول الإمام الآلوسى -: « هى: آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذى كان حاكم مصر فى زمن يوسف الصديق - عليه السلام - وكانت من خيار النساء، وأماً للمساكين، ترحمهم وتتصدق عليهم ... » .

ويكفى لمدحها قول الله - تعالى -:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

---

١ - سورة القصص . الآية : ٩ .

٢ - سورة التحريم . الآية : ١١ .

هذه المرأة الطاهرة القانتة قالت لزوجها فرعون، بعد أن أخرج موسى - عليه السلام - من التابوت الذى كان بداخله، ورأت وجهه المشرق بالنور . . .

قالت لزوجها فرعون بقوة وشجاعة : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك، هو محل السرور والفرح لعينى ولعينك يا فرعون . . .

فالجملة الكريمة ﴿ قرة عين لى ولك ﴾ : كناية عن السرور به، لأن لفظ ﴿ قرة ﴾ مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه، استقر نظرها عليه، واشتغلت به عن غيره .

ولم تكتف هذه المرأة فى الدفاع عن موسى - عليه السلام - بهذه الجملة، بل وجَّهت كلامها إلى فرعون وإلى بطانته فقالت لهم جميعاً : ﴿ لا تقتلوه ﴾ أو تمسوه بسوء . . .

ثم عللت النهى عن قتله وعن إلحاق أى أذى به ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فى مستقبل أيامنا، فنجنى من وراء وجوده بيننا خيراً كثيراً . . .

﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ لنا، فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليُمْن وقوة الشخصية . . .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ : جملة حالية .

أى : واستمع الجميع إلى أقوال امرأة فرعون، وأذعنوا لما أشارت به، والحال أنهم لم يشعروا بأن هلاكهم جميعاً سيكون على يد هذا الوليد الجديد .

وهكذا شاءت إرادة الله - تعالى - أن تجعل امرأة فرعون، سببًا فى إنقاذ موسى - عليه السلام - من القتل، وفى أن يعيش فى بيت فرعون، ليكون له ولبطانته مصدر عداوة وحزن وهلاك لهؤلاء الذين قال الله - تعالى - فى ذمهم : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ .

وفى مشهد جديد يقص علينا القرآن الكريم حالة «أم موسى» بعد أن ألقت بفلذة كبدها فى نهر النيل، وبعد أن غاب عن عينيها والأمواج تتقاذفه من مكان إلى مكان، وبعد أن بلغها أن حاشية فرعون قد التقطته من الماء ووضعته بين يدى فرعون ...

يصور القرآن كل ذلك بأسلوبه البديع فيقول :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

المعنى : وبعد أن ألقت «أم موسى» به فى اليم، والتقطه آل فرعون وعلمت بذلك، صار قلبها وفؤادها خاليًا من التفكير فى أى شئ يتعلق بحياتها من طعام أو شراب أو نوم ...

أصبح عقلها وفكرها خاليًا وفارغًا من أى شئ من ذلك، إلا من

---

١ - سورة القصص . الآية : ١٠ .

شئ واحد ألا وهو مصير ابنها موسى ـ عليه السلام ـ ويا له من تصوير بديع مؤثر ، فيه ما فيه من الدقة في بيان الحالة النفسية لأم موسى التى أصبحت فى حالة من الاضطراب لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ وبلغ بها الألم والحزن أنها صارت فاقدة للتفكير فى أى شئ من شئون هذه الحياة إلا في مصير ابنها موسى ـ عليه السلام ـ

وكلمة « إنْ » فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، ولفظ « تبدى » بمعنى : تظهر ، مأخوذ من بدا الشئ يبدو إذ ظهر ظهوراً جلياً ، والضمير فى « به » يعود إلى موسى ـ عليه السلام ـ

أى : وأصبح قلب أم موسى خاليًا وفارغًا من التفكير فى أى شئ يتعلق بحياتها ، سوى التفكير فى أمر ابنها ، ولقدبلغ بها الحال أنها كادت أن تسرع إلى بيت فرعون لتقول له ولحاشيته : إن هذا الغلام الذى بين أيديكم هو ابنى ، وأنا التى دون وعى ألقيتُ به فى اليم فارحمونى وأعيدوه إلىّ فأنا لا أستطيع الحياة بدونه . . .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبـاً من فضله عليها ، ومن رحمته بها فقال : ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ .

أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وحكمتنا ومشيئتنا ، بأن ثبتناه وقويناه ، لأظهرت للناس أن الطفل الذى التقطه آل فرعون من اليم هو ابنها .

وأصل الربط: الشد والتقوية للشئ، ومنه قولهم: فلان رابط الجأش. أى: قوى القلب.

وجملة ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ جملة تعليلية لبيان سبب تثبيت قلبها وتقويته ...

أى: ربطنا على قلبها وثبتناه، ومنعناها بقدرتنا وحكمتنا من أن تذهب إلى بيت فرعون لتقول له ولمن معه، هذا الذى بين أيديكم هو ابنى، وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدقين بوعد الله، وأنه ـ سبحانه ـ سيرد إليها ابنها، ليكون قرة عين لها، وليكون موضع سرورها واطمئنانها.

ولكن قلب الأم هو قلب الأم، فإن أم موسى لم تهدأ ولم تكف عن البحث بكل وسيلة لتعرف مصير ابنها، فماذا فعلت؟

لقد قص علينا القرآن ما قالته أم موسى لأخته، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1]

ولفظ «قصيه» معناه: تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره. يقال: قص فلان أثر فلان فهو يقصه إذا تتبعه، ومنه القصص للأخبار المتعددة والمتنوعة.

---

١ ـ سورة القصص. الآية: ١١.

والمعنى: إن أم موسى - عليه السلام - منذ أن ألقت بفلذة كبدها، وبقطعة منها في اليم، لم تهدأ، ولم تسكت، بل قالت لأخته: يا بنيتي تتبعي أثر أخيك، واستكشفي خبره، وبلغيني بما آل إليه حاله.

قال الإمام الآلوسي - رحمه الله -: « وأخته كان اسمها مريم.. والتعبير عنها بأخته دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر.. والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغاً، فإن كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهر، وإن كانت قد عرفته فتتبع الخبر ليعرف هل قتلوه أو لا، ولينكشف ما هو عليه من الحال.

وقوله - سبحانه -: ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾: بيان لما وصلت إليه أخت موسى خلال بحثها عنه.

أي: وامتثلت أخت موسى - عليه السلام - لما أمرتها به أمها، فأخذت تبحث عن أخيها هنا وهناك، وأخيراً رأته وآل فرعون محيطون به.

وهذه الجملة الكريمة تشير إلى أن أخت موسى وهي تبحث عنه كانت حذرة، ولا تريد أن يعرف أحد أنها أخت لموسى، وعندما أبصرته كان إبصارها له عن مسافة بعيدة، بدليل قوله - سبحانه -: ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ أي: فرأته عن جانب بعيد عنها، وقوم فرعون غافلون عنها.

ويشهد لذلك قوله - سبحانه -: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى: أن أخت موسى أبصرته بطريقة فيها مخادعة لآل فرعون، بحيث جعلتهم لا يحسون ولا يشعرون بأنها أخت لموسى، وأنها تبحث عنه وتتبع أخباره.

ثم بين - سبحانه - مظهراً من مظاهر قدرته وحكمته وتدبيره لأمر موسى كى يعود إلى أمه، فقال - تعالى -:

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾[1]

والمقصود بالتحريم هنا: المنع وعدم الاستجابة للمرضعات اللائى كن يُعرَضْنَ عليه ليتناول ثديهن لكى يَرْضَعَ شأن الأطفال فى حالة الصغر.

والمعنى: ومنعنا بقدرتنا وحكمتنا موسى - عليه السلام - من أن يرضع من المرضعات اللائى كن يتقدمن نحوه لرضاعته، وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته.

---

١ - سورة القصص. الآية: ١٢.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : « قوله - تعالى - : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أى: تحريماً قدرياً - بقدرته - تعالى - وحكمته دون تدخل من أحد من البشر.. وذلك لتكريم الله - تعالى - له، فقد صانه - سبحانه - من أن يرضع من غير ثدى أمه، لأنه - سبحانه - جعل ذلك سبباً فى رجوعه إلى أمه - لكى ترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة ».

وقوله - عز وجل - : ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾: حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته، بعد أن رأتهم يبحثون لأخيها عن مرضعة وهو لا يقبل ذلك...

والاستفهام هنا للتحضيض والتحريض على الاستماع إليها، والاستجابة لرأيها.

والمعنى: وبعد أن أبصرت أخت موسى به عن ابتعاد وحذر ومخادعة لمن حوله، ورأت رفضه للرضاعة من المراضع اللاتى عرضن أنفسهن عليه ليرضع من ثديهن.

بعد كل ذلك قالت لامرأة فرعون ولفرعون وخدمه وحاشيته: ألا أدلكم على أهل بيت يكفلون موسى لكم، ويقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته ﴿ وهم له ناصحون ﴾.

أى: وهم لا يمنعون عنه ما ينفعه فى غذائه وفى تربيته، ولايقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية؟

ثم بين - سبحانه - أن سنته فى خلقه أن وعده لا يتخلف، فقال:

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وهذه الآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير: فسمعوا منها ما قالت، وقال فرعون وحاشيته لأخت موسى - عليه السلام -: أرشدينا إلى أهل ذلك البيت الذين يكفلون لنا هذا الوليد الرضيع، ويقومون على خدمته ورعايته وإرضاعه...

فأرشدتهم إلى بيت أمه، فردَّه الله - تعالى - بقدرته ومشيئته إليها، كى يطمئن قلبها، وتقر عينها برجوع ولدها إليها، ولا تحزن لفراقه، ولتعلم أن وعده - سبحانه - لا خلف فيه، بل هو كائن لا محالة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حق العلم، ولذا يستعجلون الأمور دون أن يفطنوا إلى حكمته - سبحانه - فى تدبير أمر خلقه.

هذه سبع آيات من سورة «القصص» قد وضحت لكل ذى عقل سليم، كيف أن عناية الله - تعالى - إذا ما أحاطت بإنسان صانته من كل سوء، وهيأت له الوسائل التى تنجيه من كيد أعدائه...

---

١ - سورة القصص. الآية: ١٣.

عناية الله ـ تعالى ـ قد أكرمت أم موسى ـ عليه السلام ـ فألقت فى قلبها الأمان والاطمئنان، وقالت لها: لا تخافى ولا تحزنى على مصير ابنك ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ .

عناية الله وقدرته ورحمته بموسى وبأمه هى التى تحدت بطش فرعون وفجوره، وهيأت لموسى أن تدافع عنه امرأة فرعون، وأن تقول لفرعون وبطانته : ﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ .

عناية الله ـ تعالى ـ ورحمته هى التى ثبتت أم موسى وربطت على قلبها، ووفقتها لتقول لأخته تتبعى أمر أخيك بحذر وخفية، وقدرته ـ عز وجل ـ هى التى جعلت موسى ـ عليه السلام ـ يمتنع عن الرضاعة من غير أمه ـ فردَّه ـ سبحانه ـ إلى أمه كى تقر عينها ولاتحزن ولتعلم أن وعد الله حق . . .

وفى سورة «طه» أكثر من تسعين آية تحدثت بالتفصيل عن جوانب متعددة من حياة موسى ـ عليه السلام ـ ومن هذه الجوانب تذكيره بألوان من نعم الله ـ تعالى ـ عليه، حتى يزداد قوةً على قوته، وثباتاً على ثباته، فى تبليغ رسالة الله ـ تعالى ـ دون أن يخشى أحداً سواه . . .

ومن هذه الآيات التى فيها ما فيها من التذكير بنعم الله ـ تعالى ـ عليه وعلى أمه، قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . . ﴾ (١)

والمعنى : قال الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - بعد أن التمس منه - سبحانه - أن يشرح له صدره وأن ييسر له أمره . . . يا موسى : لقد أجبنا دعاءك ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطب نفساً وقر عيناً ، ونفذ ما كلفناك به .

فقوله - عز وجل - : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ حكاية لما رد به - سبحانه - على موسى - عليه السلام - بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات الخاشعات : ﴿ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . . . ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ : تذكير منه - سبحانه - لموسى - عليه السلام - بجانب من النعم التى أنعم بها عليه .

---

١ - سورة طه . الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

ثم فصَّل - سبحانه - جانباً من هذه النعم فقال : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت . . . ﴾ .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى ، أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل ، فقلنا لها : ضعى ابنك فى صندوق ، ثم بعد ذلك اقذفى بالصندوق الذى بداخله ابنك فى البحر ، وبأمرنا وقدرتنا ستلقى أمواج البحر بهذا الصندوق على شاطئ النيل ، وفى هذه الحالة سيأخذه عدو لى وعدو له ، وهو فرعون الذى طغى وبغى وقتل الذكور من بنى إسرائيل ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى . . .

ومن نعمنا عليك يا موسى : أن ألقيت عليك محبة عظيمة منى ، كان من آثارها حماية امرأة فرعون لك ودفاعها عنك .

ومن نعمنا عليك - أيضاً - : أن جعلتك تربى تحت رعايتى ، وأن تحاط بالرعاية حتى من فرعون .

ومن نعمنا عليك - كذلك - : أن أختك أمرتها أمك التى كان قلبها خالياً من أى تفكير إلا فى مصيرك وأخبارك ، أمرتها بأن تستقصى أحوالك ، فامتثلت وسارت فى طرقات مصر بحذر وتخفى ، فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت ممتنع عن الرضاعة من أى امرأة تعرض ثديها عليك ، فقالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على المرأة التى يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ؟ فقالا : دلينا عليها ؟ فجاءت بأمك فقبلت ثديها فرجعناك بقدرتنا ورحمتنا إليها لكى تزداد ثقة بوعد الله ، وتزداد سروراً وفرحاً بلقائها بك ،

بعد أن ألقتك فى نهر النيل لتنجيك من بطش فرعون وغدره وظلمه، وبعد أن أصابها ما أصابها من الاهتمام بشأنك، ومن الحزن على فراقك، فقد كانت أمك - يا موسى - على رأس الأمهات اللائى ألهمهن - الله - تعالى - السداد والتوفيق، والعقل السليم، والتفكير القويم، والفطرة النقية، التى هى من أسمى نعم الله - تعالى - على عباده الذين - رضى الله عنهم ورضوا عنه -

٣ - قصة امرأتين من أرض مدين

وقصة هاتين المرأتين - أو الفتاتين - ترتبطان بجانب من قصة سيدنا موسى - عليه السلام - فإنه بعد أن بلَغَ منتهى شدته وقوته، ومنحه الله - تعالى - الحكمة فى القول والفعل، وأعطاه الفقه فى الدين، والفهم السليم للأمور، والإدراك القويم لشئون الحياة ...

وبعد أن نصر المظلوم الذى استجار به وكان من شيعته، وخذل الظالم الذى كان من شيعة فرعون، وبعد أن شاع الخبر فى المدينة بأن موسى - عليه السلام - قد قتل رجلاً من آل فرعون ...

بعد كل ذلك جاء رجل إلى موسى ممن يحبون له الخير، فقال له ناصحاً ومشفقاً:

﴿ ... يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ⦗٢٠⦘ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)

أى: وجاء رجل من طرف من أطراف مدينة مصر يسعى مسرعاً نحو موسى - عليه السلام - فقال له: يا موسى إن زعماء قوم فرعون قد أضمروا قتلك فاخرج من هذه المدينة إلى مكان آخر، فإنى من الناصحين لك، ومن المشفقين عليك ...

---

١ - سورة القصص. الآيتان: ٢٠ - ٢١.

فخرج موسى - عليه السلام - من المدينة التى يسكنها فرعون ﴿ خائفا ﴾ من الظالمين ﴿ يترقب ﴾ التعرض له منهم، ويعد نفسه للدفاع عن ذاته، وللابتعاد عن أنظارهم، ودعا خالقه بقوله: يارب نجنى بقدرتك وبفضلك ﴿ من القوم الظالمين ﴾ بأن تصوننى من كيدهم، وتحول بينهم وبينى.

ويغلب على الظن أن موسى - عليه السلام - عندما خرج من مصر خائفاً يترقب، كان يريد التوجه إلى أرض مدين، فتوجه إلى الله - تعالى - بالدعاء أن يوفقه إلى الذهاب إلى أرض مدين من أيسر طريق، ويشير القرآن إلى ذلك فى قوله - سبحانه -: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]

ولفظ « مدين »: اسم لقبيلة شعيب - عليه السلام - أو للأرض التى كان يسكن فيها، سُمِّيت بذلك نسبة إلى «مدين بن إبراهيم» - عليه السلام - وإنما توجه إليها موسى - عليه السلام - لأنها كانت خارجة عن حدود مصر التى كان يحكمها فرعون.

والمعنى: وبعد أن خرج موسى من مصر خائفاً يترقب، اتجه بوجهه إلى أرض مدين التى هى على أطراف بلاد الشام من جهة الجنوب، وعلى أطراف بلاد الحجاز من جهة الشمال.

---

١ - سورة القصص. الآية: ٢٢.

وتوجه خلال ذلك بالدعاء فقال : يارب ، أسألك أن ترشدنى إلى أفضل الطرق التى توصلنى إلى أرض مدين ، والتى تؤدى إلى النجاة من القوم الظالمين .

فالمقصود بسواء السبيل : الطريق المستقيم السهل الموصل إلى النجاة من أعدائه الذين يريدون قتله .

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعاء عبده موسى ـ عليه السلام ـ فقد وصل إلى أرض مدين بعد رحلة شاقة . . .

ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إلى أرض مدين فيقول :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (١)

ولفظ « ورد » من الورود بمعنى الوصول إلى المكان ، يقال ورد فلان إلى مكان كذا ، إذا وصل إليه .

---

١ ـ سورة القصص . الآية : ٢٣ .

ولفظ « تَذُودان » من الذود بمعنى الطرد والدفع والحبس، يقال: ذاد فلان إبله عن الحوض، إذا منعها وحبسها عن الوصول إليه.

والمقصود بماء مدين: الموضع والمكان الذى كان به الماء المستعمل لسقى دواب أهل تلك المنطقة.

والمعنى: وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى أرض مدين، وإلى المكان الذى كان به الماء الذى يستعمله أهل تلك المنطقة لسقى دوابهم، وجد من حوله عدداً كبيراً من الناس يتزاحمون من حول موضع الماء لسقى دوابهم المتنوعة الأصناف ...

﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ أى: ووجد من غير ذلك العدد الكبير من الناس امرأتين مبتعدتين ومنفردتين عنهم، وهما تمنعان أغنامهما ومواشيهما من الوصول إلى موضع الماء، حتى ينتهى هذا العدد الكبير من سقى دوابهم، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما، لأنهما لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال ...

وهنا قال لهما سيدنا موسى - عليه السلام - صاحب الهمة العالية، والمروءة السامية، والنفس الوثابة نحو نصرة المحتاج، والعزيمة التى تأبى التراجع عن معاونة من يحتاج إلى العون ...

قال لهما بأسلوب يشبه التعجب: ﴿ ما خطبكما ﴾ أى: ما شأنكما؟ وما خبركما؟ وما الدافع لكما إلى منع دوابكما من السقى من هذا الماء مع أن الناس يسقون منه؟!

وقد أجابت المرأتان على سؤال موسى بإجابة حكيمة مهذبة وضحتا فيها سبب منعهما لغنمهما عن الشرب، واعتذرتا له عما حملهما على أن يقوما بمهمة الرعي التي أولى بها الرجال وليس النساء فقالتا بأدب: ﴿ لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ .

والفعل المضارع « يُصدر » مأخوذ من الصَّدَر بمعنى الرجوع عن الشئ، يقال: صَدَرَ فلانٌ عن الشئ، إذا رجع عنه، ويقال: أصدر الرعاة دوابهم إذا سقوها وصرفوها عن الماء.

ولفظ « الرِّعاء » جمع لكلمة الراعي، من الرعي بمعنى الحفظ.

أي: قالت المرأتان لموسى - عليه السلام - إن من عادتنا أن لا نسقي دوابنا حتى يصرف الرجال دوابهم عن الماء، ويصير موضع الماء خالياً لنا، لأننا لا قدرة لنا على مزاحمة الرجال . . .

واعذرنا إذا كنا قد شققنا عليك، لأنه ليس عندنا رجلٌ يقوم بهذه المهمة، وأبونا شيخ كبير في السن، لا يقدر - أيضاً - على هذا العمل لضعفه ولتقدم سنه.

وبعد أن سمع موسى - عليه السلام - منهما هذه الإجابة، سارع إلى معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة، والقلوب العامرة بمكارم الأخلاق - وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة فقال: ﴿ فسقى لهما ﴾ .

أى: فسقى لهما غنمهما سريعاً، من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار . . .

وفى هذا التعبير إشارة إلى قوته، إذ استطاع وهو فرد غريب بين جموع كثيرة من الناس يسقون، أن يزاحمهم وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما، دون أن يصرفه شئ عن ذلك.

ورحم الله صاحب الكشاف، فقد أجاد عند عرضه لهذه المعانى فقال ما ملخصه: قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فسقى لهما ﴾: أى: فسقى لهما غنمهما .

وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يستطيع حمله إلا سبعة رجال، فأزاحه عن مكانه وحده، وإنما فَعَلَ ذلك: رغبةً فى المعروف، وإغاثةً للملهوف .

والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من الناس متكاثرة العدد، ورأى موسى ـ عليه السلام ـ المرأتين الضعيفتين من وراء الناس مع غنمهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته فى دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من التعب والجوع، ولكنه مع ذلك رحمهما فأغاثهما بقوة قلبه، وبقوة ساعده.

ثم قال رحمه الله: فإن قُلتَ: كيف طابق جوابهما سؤاله؟

قُلتُ: سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب فى ذلك أننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال،

فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ كبير قد أضعفه الكبر، فلا يصلح للقيام بمشقة الرعى؛ فهما قد أظهرتا له عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما.

ثم قال الإمام الزمخشرى - رحمه الله -: « فإن قُلتَ : كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب - عليه السلام - أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية ورعيها؟

قُلتُ: الأمر فى ذاته ليس بمحظور، والدين لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك، والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه قد تخالف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو سوى مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة ».

وقوله - سبحانه -: ﴿ ... ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾(١)

بيان لما فعله موسى - عليه السلام - ولما قاله من دعاء تضرع به إلى خالقه بعد أن سقى للمرأتين غنمهما.

والمعنى: فسقى موسى - عليه السلام - دوابهما، قاصداً بذلك عونهما ومساعدتهما، ثم تركهما متجهاً إلى ظل شجرة أو جدار كان قريباً منه...

---

١ - سورة القصص. الآية: ٢٤.

ثم تذكر نعم الله - تعالى - عليه فى أيامه الماضية، فتضرع إليه أن يزيده منها قائلاً: يارب، إنى محتاج إلى ما تسوقه إلىَّ من أى خير من عندك سواء أكان هذا الخير طعاماً أم شراباً أم غيرهما، فأنت وحدك الذى تعلم تعبى خلال سفرى الطويل، وتعلم أنى ليس معى ما هو ضرورى لحياتى!!

واستجاب الله - تعالى - دعاء عبده موسى - عليه السلام - وأرسل إليه الفرج سريعاً، يشير إلى هذا الفرج بعد هذا الدعاء قوله - عز وجل -:

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1]

وفى الكلام حذف يفهم من السياق، وقد أشار إليه الإمام ابن كثير رحمه الله - بقوله -: « لما رجعت المرأتان سراعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما ومجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه مافعله معهما موسى - عليه السلام - فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى لقاء أبيها، كما قال - تعالى -: ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾ أى: مشى الحرائر .... » .

ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: « وقداختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو على أقوال: أحدها أنه « شعيب » - عليه السلام -

١ - سورة القصص . الآية : ٢٥ .

الذى أرسله الله إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عندكثيرين...».

وقال آخرون: «بل كان ابن أخى شعيب، وقيل: رجل مؤمن من آل شعيب - عليه السلام -».

ثم قال - رحمه الله -: «ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب، أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هنا، وماجاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده».

والمعنى: ولم يطل انتظار موسى - عليه السلام - للخير الذى التمسه من خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى الفتاتين اللتين سقى لهما، وهى تمشى مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة النقية، التى يكسوها الحياء والاحتشام شأن النساء الصالحات...

جاءته لتقول له كلاماً محدداً لا خضوع فيه ولا التواء: ﴿ إن أبى يدعوك ﴾ للحضور إليه: ﴿ ليجزيك أجر ماسقيت لنا ﴾ أى: ليكافئك على سقيك لنا دوابنا...

واستجاب موسى - عليه السلام - لدعوة أبيها، وذهب معها للقائه ﴿ فلما جاءه ﴾ فلما وصل موسى إلى ذلك الرجل الصالح الكبير ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أى: وقص موسى على ذلك الشيخ الكبير ما حدث له قبل لقائه من قتله لرجل من شيعة فرعون لأنه اعتدى على مظلوم، ومن خروجه من مصر خائفاً يترقب متوجهاً إلى أرض مدين...

فلما سمع الشيخ الكبير ما قصه موسى - عليه السلام - عليه، قال له مطمئناً وباعثاً للأمان فى قلبه: يا موسى، لا تخف من فرعون وقومه، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم، وأنت - ياموسى - الآن فى أرض مدين التى لا سلطان لفرعون ولا لقومه عليها، ولن يصيبك وأنت فى أرضنا أى سُوء أو أذى، ولا شك أن هذه الكلمات الطيبات من الشيخ الكبير، كان لها أثرها الحسن على قلب موسى - عليه السلام - لأنها صدرت من لسان صادق، إلى إنسان قال الله - تعالى - فى شأنه: ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ .

ثم يقص القرآن بأسلوبه البليغ ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها الشيخ الكبير الذكى ذى الفراسة والفطنة، فيقول:

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1]

أى: قالت إحدى الفتاتين لأبيها، ولعلها التى جاءت إلى موسى - عليه السلام - على استحياء ...

قالت لأبيها: ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أى: يا أبت اطلب من هذا الرجل الغريب أن يكون أجيراً عندك ليريحنا من تعب الرعى، ومن مشقة العمل خارج البيت ...

---

١ - سورة القصص . الآية : ٢٦ .

وقد قالت ذلك بوضوح واستقامة قصد شأن المرأة السليمة الفطرة، النقية العرض، القوية في شخصيتها . . .

ثم عللت طلبها بقولها: ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ أي: استأجره ليرعى غنمنا، فإنه جدير بهذه الوظيفة لقوته وأمانته، ومَنْ جمع في سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة، كان أهلاً لكل خير، ومحلا لثقة الناس به على أموالهم وأعراضهم.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الجملة ما ملخصه: قال غير واحد من السلف: لما قالت هذه المرأة لأبيها: ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يستطيع رفعها إلا عدد من الرجال، وإنه حين جئت معه تقدمت أمامه ـ لعدم معرفته بالطريق إلى بيتنا ـ فقال لي: كوني من ورائي، فإذا أخطأت الطريق فأشيري بإشارة أعرف بها الطريق الصحيح فأسير فيه.

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته ابنته، وكأنه قد شعر بصدق عاطفتها، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها، فوجه كلامه إلى موسى ـ عليه السلام ـ قائلاً: يا موسى

﴿ . . . إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1]

---

١ ـ سورة القصص ـ الآية: ٢٧ .

أى: قال الشيخ الكبير لموسى مستجيباً لاقتراح ابنته: يا موسى، إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين . . .

ولعله أراد بإحداهما تلك التى قالت له: يا أبت استأجره، لشعوره - وهو الذكى الفطن، والأب العطوف، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته، وبين هذا الرجل القوى الأمين، وهو موسى - عليه السلام -

وفى هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة فى الرجل الصالح، وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يحققوا هذه الرغبة الشريفة.

قال الإمام الشوكانى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: « فى هذه الآية جواز مشروعية عرض ولى الأمر لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام، فقد عرض عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ابنته حفصة على أبى بكر الصديق، ثم على عثمان بن عفان، بعد وفاة زوجها . . . إلا أنهما اعتذرا، فتزوجها النبى - ﷺ - تكريماً لها ولأبيها عمر بن الخطاب . . . » .

ثم قال الإمام الشوكانى - رحمه الله -: « وقد وقع ذلك كثيراً فى العهد النبوى وفى عهود الصحابة، وكذلك وقع من إحدى الصحابيات أن عرضت نفسها على النبى - ﷺ - للزواج بها . . . » .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ : بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى ـ عليه السلام ـ

أي : قال الرجل الصالح لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ بصيغة التأكيد : إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين ، بشرط أن تكون أجيراً عندي لرعي دوابي وغنمي ثماني سنين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ : أي : فإن أتممت عشر سنين وأنت أجير عندي لرعاية ماشيتي وغنمي ، فهذا الإتمام إحسان وفضل منك ، فإني لا أشترط عليك سوى ثمانية أعوام .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ : بيان لحسن العرض الذي عرضه والد هاتين الفتاتين على موسى ـ عليه السلام ـ

والمعنى : وما أريد ـ يا موسى ـ أن أشق عليك أو أن أتعبك في أمر من الأمور خلال استئجاري لك ، بل ستجدني ـ إن شاء الله ـ من الصالحين الذين يحسنون معاملة من يعيشون معه ، والذين يوفون بعهودهم ، ويحافظون على اعتناق مكارم الأخلاق .

وقال الشيخ الكبير : ﴿ ستجدني إن شاء الله ﴾ : للدلالة على أنه من المؤمنين الذين يفوضون أمورهم إلى الله ـ تعالى ـ ويرجون توفيقه ومعونته على البر والخير . . .

ثم ختمت هذه الآيات من سورة القصص برد موسى - عليه السلام - على والد هاتين الفتاتين، فقال - تعالى -:

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (١)

أى: قال موسى - عليه السلام - فى الجواب على الشيخ الكبير والد المرأتين: ذلك الذى قُلْتَهُ لى، واشترطته علىّ، كائن وحاصل ومحل اتفاق بينى وبينك، وكلانا مُطالب بالوفاء بما اتفقنا عليه...

فأى الأجلين - الثمانية الأعوام أو العشرة الأعوام - وفيت به، وأديته معك أجيراً عندك، فلا ظلم علىّ، ولن أقصر فى عملى، كما أنى لا أطالب بشئ فوق ما اتفقنا عليه، وكل زيادة على الثمانية الأعوام فهى باختيارى وإرادتى التى لا إجبار عليها ...

والمقصود بقوله - سبحانه -: ﴿ والله على مانقول شهيد ﴾: توثيق العهد وتوكيده، وأنه لا سبيل لأحدهما فى الخروج عنه أصلاً.

أى: والله - تعالى - شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه، وتعاهدنا على تنفيذه، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة.

وقد ساق الإمام ابن كثير - رحمه الله - جملة من الآثار التى تدل

١ - سورة القصص. الآية: ٢٨.

على أن موسى ـ عليه السلام ـ قد قضى أطول الأجلين، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [سألت جبريل: أى الأجلين قضى موسى؟] قال: أكملهما وأتمهما وفى رواية: أبرهما وأوفاهما.

ومن الدروس السديدة، والآداب الحكيمة، والإرشادات السامية، والآداب العالية التى نأخذها من هذه الآيات:

١ ـ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون قبل النبوة وبعدها من كل قول أو فعل يتعارض مع المروءة والشرف ومكارم الأخلاق، ويسارعون إلى اعتناق الفضائل وإلى نصرة المظلوم وإلى مساعدة المحتاج ...

وهذا موسى ـ عليه السلام ـ قبل أن يكون رسولاً من عند الله ـ تعالى ـ إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل ...

نراه قبل نبوته عندما ورد ماء مدين ووجد امرأتين لا تستطيعان مزاحمة الرجال لسقى غنمهما، ما كان منه إلا أن سارع إلى نجدتهما وعونهما وسقى لهما غنمهما، مع أنه لا يعرفهما، ومع أنه فى ذلك الوقت قد انتهى من سفر طويل، أصيب خلاله بالكثير من التعب والإرهاق.

وهكذا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم صفوة البشر، يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون.

---

٢ - أن ما بالذات لا يتغير، فالرجل فى كل زمان ومكان هو الرجل والمرأة فى كل زمان ومكان هى المرأة، وقد اقتضت حكمة الخالق - عز وجل - أن يجعل للرجال خصائص ينفردون بها عن النساء، وأن يجعل للنساء خصائص ينفردن بها عن الرجال، حتى يعمر الكون، ويمتد التناسل من جيل إلى جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن الأدلة على أن للرجل خصائص وللمرأة خصائص، أنك تجد أن موسى - عليه السلام - الذى بلغ أشده واستوى، لم يُرْضه أن يرى امرأتين تُؤخِّران سَقْى غنمهما حتى ينتهى الرجال من سَقى دوابهم لأنهما لا تستطيعان مزاحمة الرجال، بينما المرأتان راضيتان بذلك لعجزهما عن المزاحمة، ومعترفتان بأن وظيفة الرعى ليست من وظيفتهما، وإنما هى من وظيفة الرجال، وأنهما لولا أن أباهما شيخ كبير لا قدرة له على هذه الوظيفة، لما قامتا هما بها، وكأنهما تقولان لموسى - عليه السلام - : اقبل عذرنا فى عدم المزاحمة وفى قبولنا لك - وأنت رجل - فى الإنابة عنا فى المزاحمة وفى السقى لنا...

وتأمل أيها القارئ الكريم - الوصف الذى وصفت إحداهما به موسى - عليه السلام - لأبيها حيث قالت له : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ ألا تراه أنسب وأفضل وصف للرجل؟!!

بينما الوصف الذى اختاره الخالق - عز وجل - لتلك الفتاة الطاهرة العفيفة الواضحة فى أنوثتها، هو الوصف بفضيلة «الحياء» حيث قال - سبحانه -: ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء... ﴾ !!

ألا ما أصدق قوله - تعالى -: ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ : إنهما وإن تساويا فى أنهما من أصل واحد، وتساويا فى الثواب على اعتناق الفضائل، وفى المحاسبة على اقتراف الرذائل، وتساويا فى الكرامة الإنسانية ...

إنهما إن تساويا فى ذلك وفى صفات أخرى، إلا أن هناك خصائص وأعمال تتناسب مع الرجال، وخصائص وأعمال تتناسب مع النساء ...

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(١)

---

١ - سورة النساء ، الآية : ٣٢ .

٣ ـ أن فضيلة الحياء وإن كانت لازمة للرجل إلا أنها بالنسبة للمرأة ألزم وأوجب، ولذا نجد القرآن الكريم اختار لهذه الفتاة الطاهرة صاحبة الفطرة النقية، وصاحبة الشخصية الزكية . . .

اختار لها على سبيل المدح والتكريم صفة « الحياء » فقال: ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾.

والحياء معناه: انقباض النفس وامتناعها عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق . . .

وهذه الصفة من صفات الله ـ عز وجل ـ ففي سنن أبي داود والترمذي عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [إن ربكم حَيِيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه، أن يردهما صفراً ليس فيهما شئ] .

ولقد أكد النبي ـ ﷺ ـ التنويه بخُلق الحياء، والرفع من مكانته، وفصَّل الحديث عن سمو منزلته، فتارة: يجعله قرين الإيمان، فيقول: [إن الحياء والإيمان قرينان، فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر] .

وتارة يجعله من الصفات التي تصعد بصاحبها إلى كل جميل فيقول: [الحياء لا يأتي إلا بخير] .

وتارة يجعله أبرز ما يتميز به دين الإسلام فيقول: [إن لكل دين خُلُقاً، وخلق الإسلام الحياء] .

ولقد فطنت السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلى سمو منزلة هذا الخُلق الكريم فقالت : « لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحًا ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءًا » .

إن خُلق الحياء من ألزم اللوازم للإنسان بصفة عامة ، وللمرأة بصفة خاصة ، ولذا يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - : « وخُلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لا حياء فيه ، فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شئ . . . » .

ولذا اختار الله - تعالى - لمدح المرأة التى جمعت كل الصفات الفاضلة ، اختار لها المدح بالتحلى بخُلق الحياء ، فقال - عز وجل - : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء . . . ﴾ .

٤ ـ مريم ابنة عمران

قصة مريم ابنة عمران ـ رضى الله عنها ـ وقصة ابنها «عيسى» ـ عليه السلام ـ وردت فى القرآن الكريم في سور متعددة، وفى مناسبات شتى . . .

منها ما جاء فى السور المكية ـ التى كان نزولها قبل الهجرة ـ كسورة «مريم» ومنها ما جاء فى السور المدنية ـ التى كان نزولها بعد الهجرة ـ كسورة «آل عمران».

وقد تكرر اسم «مريم» فى القرآن أربعاً وثلاثين مرة، بينما تكرر اسم ابنها «عيسى» خمساً وعشرين مرة.

ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى فضل «مريم» ـ رضى الله عنها ـ ما جاء فى الصحيحين عن عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول: [خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد].

أى: مريم ابنة عمران خير نساء الدنيا فى زمانها، وخديجة خير نساء هذه الأمة .

ومنها: ما جاء فى سنن الترمذى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: [حَسْبُكَ من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسيا بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ] .

والذى يقرأ القرآن الكريم يراه قد فصَّل الحديث عن ولادة مريم ابنة عمران، وعن نشأتها، وعن فضلها، وعن طهارتها وعفافها، وعن اصطفائها على نساء زمانها، وعما أعده الله ـ تعالى ـ لها من ثواب عظيم.

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى ميلاد «مريم» وفى شأن نشأتها، قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾
إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ
اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1)

---

1 ـ سورة آل عمران. الآيات: ٣٣ ـ ٣٧.

ولفظ «اصطفى» من الاصطفاء بمعنى : الاختيار والانتقاء وطلب الصفوة من كل شئ .

والمعنى : إن الله - تعالى - قد اختار واصطفى «آدم» أبا البشر ، بأن جعله خليفة فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته .

واصطفى «نوحًا» لأنه - كما يقول الإمام الآلوسى - آدم الأصغر ، والأب الثانى للبشرية ، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله ، لقوله - سبحانه - : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[1]

واصطفى «آل إبراهيم» أى : واختار عشيرة وأقارب وذرية إبراهيم ، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .

واصطفى «آل عمران» بأن جعل منهم «عيسى» - عليه السلام - الذى آتاه الله البينات ، وأيده بروح القدس .

والمقصود بعمران هذا : والد مريم أم عيسى - عليه السلام - فهو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا . . . وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - الذى كان جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعده من نسله . . . فقد دعا إبراهيم - عليه السلام - الله - تعالى - بقوله :

﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2]

أى : واجعل لى ذكرًا حسنًا ، وسمعةً طيبةً وأثرًا كريمًا فى الأمم

---

١ - سورة الصافات . الآية : ٧٧ . ٢ - سورة الشعراء . الآية : ٨٤ .

الأخرى التي ستأتي من بعدى، فأجاب الله ـ تعالى ـ له دعاءه، فجعل أثره خالداً، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين، وعلى رأسهم خاتمهم وإمامهم محمد ـ ﷺ ـ الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وإن فى ذلك التسلسل المنتقى المختار، دليل على أن الله ـ تعالى ـ قد اقتضت حكمته أن يجعل فى الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم، فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى البشر، كما قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(١)

ثم جاء من بعده بزمان لا يعلمه إلا الله، «نوح» ـ عليه السلام ـ فمكث يدعو الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده ـ عز وجل ـ ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاء من بعد ذلك خليل الله ـ تعالى ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فدعا الناس إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق، فكان هو وآله صفوة الخلق، وفيهم النبوة، فمن إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان محمد ـ ﷺ ـ الذى هو أفضل الأنبياء والرسل وخاتمهم.

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء، منهم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ...

١ ـ سورة طه ـ الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

ومن فرع « إسحاق » - عليه السلام - كان آل عمران، وهم ذريته وأقاربه، ومنهم زكريا ويحيى وعيسى الذى كان آخر نبى من هذا الفرع، كما كان آخر نبى قبل خاتم الأنبياء محمد - ﷺ -.

وفى التعبير بالاصطفاء: تنبيه إلى أن آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق، إذ أن الرسل جميعاً من نسلهم.

وقوله: ﴿ على العالمين ﴾ أى: على عالمى زمانهم. أى: أن كل نبى من هؤلاء الرسل السابقين، كان مفضلاً هو ومن آمن به على غيرهم ممن بقى على كفره وشركه.

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من بعض فقال: ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ أى: أن هؤلاء المصطفين الأخيار بعضهم من نسل بعض، فهم متصلو النسب، فنوح - عليه السلام - من ذرية «آدم» - عليه السلام - وآل إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم، فهم جميعاً سلسلة متصلة الحلقات فى النسب والفضل، والله - تعالى - سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم.

ثم قص علينا - سبحانه - ما قالته امرأة عمران، عندما أحست بعلامات الحمل فى بطنها، فقال - تعالى -: ﴿ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾.

وامرأة عمران هذه: هي « حنة » بنت فاقوذا بن قنبل.. وهي أم مريم، وجدة عيسى - عليه السلام - وعمران هذا هو زوجها، وهو والد مريم.

ولفظ «نَذَرْتُ» من النذر، ومعناه: التزام التقرب إلى الله - تعالى - بشئ من جنس العبادات التى شرعها الله - تعالى - لعباده ليتقربوا بها إليه رغبة في ثوابه.

ولفظ « محررًا » أي: خالصًا للعبادة لله - تعالى - متفرغًا من شواغل الدنيا، متخليًا عن شهواتها ومتعها، يقال: حررت العبد إذا خلصته من الرق. وتقول: حرر فلان الكتاب، إذا أصلحه ونقاه من كل الأخطاء. ويقال: رجل حُر، إذا كان خالصًا ومسالمًا لنفسه، وليس لأحد من الناس عليه سلطان أو ولاية.

والمعنى: واذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر، وقت أن لجأت امرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع، فتقول: يارب، إنى نذرت لك ما في بطنى خالصًا لخدمة « بيت المقدس » ومتفرغًا لطاعتك ولعبادتك، فتقبل منى هذا النذر الخالص، وتلك النية الطيبة، إنك يا إلهى أنت السميع لقولى ولدعائى، العليم بنيتى وبمقصدى وبسرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شئ من شئون خلقك. فأنت ترى في هذا الدعاء الخاشع الذى قالته امرأة عمران، أسمى ألوان الأدب والإخلاص، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك، وهو الجنين الذى في بطنها، ملتمسة منه - عز وجل -

أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته، دون أن يشغله عن خدمة بيته المقدس أى شاغل، أو أن يصرفه عن العبادة والطاعة لخالقه ـ عز وجل ـ أى : صارف .

وجملة ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ : تعليلية لاستدعاء القبول، من حيث إن سمعه وعلمه ـ سبحانه ـ بحالها وبصدق نيتها وبإخلاصها، في كل ذلك الرجاء فى قبول نذرها تفضلاً منه ـ عز وجل ـ وكرماً .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما قالته أم مريم بعد أن تمت ولادة مريم فقال: ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى . . . ﴾ .

أى: وبعد أن تضرعت أم مريم إلى ربها وقالت: يارب، إنى نذرت لخدمة بيتك المقدس ما فى بطنى، وبعد أن تم وقت الحمل، وضعت مولودها، وقالت: يارب، أنت تعلم أن هذا المولود أنثى . .

وقولها هذا ليس المقصود منه الإخبار، فالله ـ تعالى ـ عليم بكل شئ، وإنما المقصود منه إظهار العذر، وكأنها تقول: يارب، أنت تعلم أنى كنت أتمنى وأتوقع أن يكون ما فى بطنى ذكراً، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيتك، وللانقطاع فيه، أما الأنثى التى ولدتها فهى لا تصلح لذلك، وأنت يا إلهى القدير على كل شئ . . .

وقوله ـ سبحانه ـ :﴿ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾

أى: والله - عز وجل - أعلم منها ومن غيرها بما وضعته أم مريم، لأنه - سبحانه - هو الذى أوجد هذا المولود، وهو الذى جعله أنثى، ومن المعروف أن الذكر ليس كالأنثى، إلا أنه - سبحانه - بحكمته وقدرته هو الذى سيجعل هذه الأنثى لها من الفضل ما لها، إذ سيهيؤها لخدمة بيته المقدس، وسيكون منها نبى كريم هو « عيسى » - عليه السلام - وسيجعلها - عز وجل - آية ظاهرة تدل على كمال قدرته، وعلى تحقق إرادته، وعلى باهر حكمته . . .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ . تتمة لكلامها بعد أن وضعتها.

وكلمة « مريم » معناها فى لغة قومها: العابدة، فأرادت أم مريم بهذه التسمية التقرب إلى الله - تعالى - والتضرع إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها.

المعنى: وواصلت أم مريم دعواتها إلى خالقها، فقالت: يارب، إنى مع رجائى وحبى بأن يكون ما فى بطنى ذكراً لأنه الأقدر على خدمة بيتك المقدس، إلا أننى راضية كل الرضا بما قدرته لى، وإنى ياخالقى، قد سميت هذه الأنثى التى وضعتها بقدرتك «مريم» وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان المرجوم والمطرود من رحمتك، بسبب تزيينه المعاصى لعبادك.

وفى التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذريتها من الشيطان الرجيم، إيماء إلى أنها تلتمس من خالقها أن يُبقى ابنتها مريم على قيد الحياة حتى تكبر وتبلغ مبلغ النساء، وتكون منها الذرية الصالحة.

تلك بعض الكلمات الطيبات، والدعوات الخاشعات، التى توجهت بها امرأة عمران إلى ربها عندما شعرت بالحمل فى بطنها، وعندما وضعت حملها، قصها القرآن بأسلوبه البليغ الحكيم، فماذا كانت نتيجتها؟

كانت نتيجتها أن أجاب الله ـ تعالى ـ دعاءها فقال: ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ .

أى: فتقبل الله « مريم » قبولاً مباركاً، وخرق بها عادة قومها، فرضى أن تكون محررة للعبادة ولخدمة بيته كالذكور، وفاءً بنذر الأم التقية الطاهرة التى قالت يارب : ﴿ إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ .

﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾ بأن رباها برعايته تربية كريمة فيها كل ألوان الطهارة والعفاف والنقاء ...

﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى: وتولى كفالتها نبى من أنبياء الله الكرام هو زكريا ـ عليه السلام ـ وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس، يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

بيان لكفالة الله ـ تعالى ـ لرزقها، ولرضاه عنها، ولرعايته لها.

ولفظ « المحراب » يطلق على المكان العالي الشريف، والمراد به هنا: الحجرة التي كانت تتخذها مريم مكاناً لعبادتها في بيت المقدس.

والمعنى: وكان زكريا ـ عليه السلام ـ كلما دخل على مريم غرفتها وجد عندها رزقاً واسعاً، وطعاماً هنيئاً، فيقول لها: يا مريم، من أين لك هذا الرزق العظيم الطيب؟ فتجيبه بقولها: هو رزق من عند الله ـ تعالى ـ وحده إن الله بفضله وإحسانه يرزق من يشاء من خلقه دون أن يحاسبه محاسب.

وهكذا يسوق القرآن الكريم عن مريم وأمها ما يدل على كمال قدرته وحكمته، وما يشهد بأن الإيمان بقدرة الله ووحدانيته يهدى القلوب إلى كل خير، وبأنه ـ سبحانه ـ يقبل دعاء الصالحين، ويرزقهم بغير حساب.

وبعد أن تحدث القرآن الكريم عن ولادة « مريم » وعن نشأتها، وعن كفالة « زكريا » ـ عليه السلام ـ لها، وعن الرزق الواسع الذى ساقه الله ـ تعالى ـ إليها وهى تتقرب إلى خالقها بالطاعات فى غرفتها ببيت المقدس...

بعد كل ذلك تحدث القرآن عن مرحلة أخرى من مراحل حياتها،

فذكر أن الله ـ تعالى ـ قد اصطفاها، وطهرها، وفضلها على نساء زمانها، وصانها من كل ما لا يليق ...

فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1]

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم ... ﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك: ﴿ إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني... ﴾ عطف القصة على القصة، فإن الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل وبعد ولادتها لمريم، وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها... بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ ذلك، فصَّل ما كان من أمرها بعد أن بلغت رشدها، واكتمل تكوينها، واستوى عودها ...

والمعنى: واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس لكي يفتحوا قلوبهم للحق الذي جئت به من عند ربك، اذكر لهم وقت أن قالت الملائكة لمريم: يا مريم، إن الله اختارك واجتباك لطاعته، وأعدك لخدمة بيته، وطهرك من كل ما لا يليق، وفضلك واصطفاك على نساء عالمي زمانك ...

١ ـ سورة آل عمران . الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

ثم بيَّن - سبحانه - أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله - تعالى - ومن المداومة على طاعته وشكره فقال: ﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ .

والقنوت: لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخشوع لله رب العالمين .

أى: وقالت الملائكة - أيضاً - لمريم: يا مريم أخلصى العبادة لله - تعالى - وحده وداومى عليها، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع له مع الراكعين، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم، وأن تزيد الإنسان إيماناً على إيمانه، وإحساناً إلى إحسانه.

فالآية الكريمة دعوة لمريم ولكل عاقل وعاقلة، بالمحافظة على العبادات، ولا سيما الصلاة فى جماعة .

قال صاحب الكشاف الإمام الزمخشرى - رحمه الله -: « أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿واركعى مع الراكعين ﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أى فى الجماعة ».

فأنت ترى فى هاتين الآيتين، أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول، فلقد أخبر الله - تعالى - باصطفائها صغيرة وكبيرة، كما أخبر بطهارتها من كل سوء، وبفضلها على نساء

عصرها وزمانها، وبالمداومة على الطاعات لتزداد سمواً ونقاءً ومحبة من خالقها - عز وجل -

---

ثم بيَّن - سبحانه - أن ماجاء به القرآن في شأن «مريم» وفي كل شأن من الشئون، هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل، وهو من أخبار الغيب التي لا يعلمها أحد سوى الله - تعالى - فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(1)

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة مريم وأمها وغير ذلك من أخبار.

والأنباء: جمع نبأ ويطلق على الخبر العظيم الشأن.

والغيب: مصدر غاب، ويطلق على الأمر المغيَّب المستور الذى لايعلم حقيقته إلا الله - تعالى - وحده.

ونوحيه: من الإيحاء، وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفي، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء، وبمعنى الإلهام.

أى: ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران، وما قالته الملائكة لمريم...

---

١ - سورة آل عمران. الآية: ٤٤.

ذلك القصص الحكيم هو من أخبار الغيب التى لا يعلمها أحد سوى الله ـ تعالى ـ وقد أخبرناك بها لتكون دليلاً على صدقك فيما تبلغه من ربك، ولتزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

ولفظ « الأقلام » : جمع قلم، وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة، وقيل : المراد بها السهام.

والمعنى: وما كنت ـ أيها الرسول الكريم ـ حاضراً ومشاهداً للأحبار الذين كانوا يتنازعون فيما بينهم، لأن كل واحد منهم كان يريد أن يكون الكافل لها.

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ: « روى أن امرأة عمران ـ أم مريم ـ بعد أن ولدتها خرجت بها إلى بيت المقدس، فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فقالوا: هذه ابنة إمامنا عمران، وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة، فقال لهم زكريا: ادفعوها عندى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى. فقالوا: لاحتى نقترع عليها، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتولى كفالتها زكريا ـ عليه السلام ـ » .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحي من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - لأن الرسول - ﷺ - لم يكن معاصراً لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم، ولم يقرأ أخبارهم في كتاب من الكتب، ومع ذلك فقد أخبر النبي - ﷺ - أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، فثبت أن هذا القرآن من عند الله ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

ثم انتقلت سورة آل عمران إلى الحديث عما قالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى - عليه السلام - فقال - تعالى -:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(1)

والمعنى: واذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر وتزداد إيماناً بوحدانية الله وقدرته، وقت أن قالت الملائكة لمريم: يامريم، إن الله - تعالى - يبشرك ﴿ بكلمة منه ﴾ .

أى: يبشرك بمولود عظيم، هذا المولود يوجد بكلمة كائنة من الله - تعالى - لا من أحد سواه، ويوجد بلا واسطة أب مخالفاً بذلك

---

1 - سورة آل عمران . الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .

ما جرت بها عادة البشر من وجود الأولاد عن طريق المباشرة بين الرجال والنساء، وهذا المولود العجيب الذى تلدينه يا مريم اسمه الذى يميزه : لقباً المسيح، والذى يميزه اسماً عيسى، والذى يميزه كُنية ابن مريم .

فأنت ترى أن هذا المولود العظيم، أن الله - تعالى - قد عرفه بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور، كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم، ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر .

فالمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ .

أى : يبشرك بمولود يحصل بكلمة «كن» فهذه الجملة الكريمة من باب إطلاق السبب، وهو لفظ « كن » على المسبب وهو وجود عيسى - عليه السلام -

قال - تعالى -: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

ولفظ « المسيح » : لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق والفاروق، ومعناه المبارك . . .

ولفظ «عيسى» اسم لهذا النبى الكريم الذى جاء من غير أب، وهو اسم يشير إلى الصفاء والنقاء، ولفظ «ابن مريم» كنيته، وهو للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها . . .

ثم وصف ـ سبحانه ـ هذا النبى الكريم الذى جاء عن طريق «مريم» بكلمة من الله ـ تعالى ـ بأربع صفات :

أما الصفة الأولى : فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ . أى : صاحب جاه وشرف ومنزلة عالية فى الدنيا والآخرة .

يقال : وَجُه الرجل وجاهة فهو وجيه ، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس ، واشتقاق هذا اللفظ من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ، ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره .

وعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ شهد الله ـ تعالى ـ له بالوجاهة وبسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة ، لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس ، وفى إخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد .

والصفة الثانية : من صفاته أنه : ﴿ من المقربين ﴾ . أى : أنه من المقربين عند الله ـ تعالى ـ ويا لها من صفة جليلة هى منتهى ما تتطلع إليه نفوس الأخيار .

وأما الصفة الثالثة : من صفات عيسى ـ عليه السلام ـ فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ .

ولفظ « المهد » : اسم لمضجع الطفل وللمكان الذى يُعد لنومه فى صغره وفى حال رضاعته .

ولفظ «الكهل» اسم للشخص الذى اجتمعت قوته، واكتمل شبابه . وهو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات، إذا قوى واشتد عوده.

والمقصود : أن عيسى ـ عليه السلام ـ يكلم الناس بلسان فصيح فى حال صغره قبل أوان الكلام، كما يكلمهم فى حال كهولته واكتمال شبابه ـ عليه السلام ـ وفى الحالتين يكون كلامه كلاماً حكيماً بليغاً، وذلك إحدى معجزاته ـ عليه السلام ـ.

أما الصفة الرابعة : من صفاته فهى ﴿ ومن الصالحين ﴾ . أى: وعيسى ـ عليه السلام ـ من الصالحين لحمل رسالة الله ـ تعالى ـ وتبليغها للناس، ودعوتهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له.

تلك هى بعض البشارات التى بشرت بها الملائكة «مريم» وتلك هى بعض صفات مولودها عيسى ـ عليه السلام ـ فماذا كان موقفها من ذلك؟

لقد وضح القرآن الكريم أن موقفها كان يدل على بالغ عَجبها وعلى شدة تأثرها، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]

أى: قالت «مريم» على سبيل التعجب: يارب، كيف يكون لى ولد، والحال أنى لم يمسسنى بشر، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يترتب عليه وجود الولد لابالزواج ولابغيره؟!

وصدرت «مريم» التقية النقية الطاهرة إجابتها بالنداء لخالقها - عز وجل - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية، وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية، لا إنكاراً لقدرة الله - تعالى -.

وقد قص علينا القرآن أن الله - تعالى - قد أزال على لسان ملائكته تعجب مريم من هذه البشارة بالولد، فقال - سبحانه -: ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾.

أى: قال الله - تعالى - لها على لسان ملائكته: يا مريم، هذا الذى يحدث لك من وجود الولد منك دون أن يمسسك بشر، ليس بمستبعد على قدرة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه، دون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات، ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء، لا راد لمشيئته ولا معقب لأمره.

ثم أكد - عز وجل - عظيم قدرته، ونفاذ إرادته بقوله: ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾.

---

١ - سورة آل عمران. الآية: ٤٧.

وقضى هنا بمعنى أراد . أى : إذا أراد - سبحانه - شيئًا ، فإنما يقول لهذا الشئ كن فيكون من غير تأخر ، ومن غير وجود أسباب ...

يدل على ذلك - أيضًا - قوله - تعالى - :

﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[1]

أى : وما أمْرُنا للشئ إذا أردناه إلا أن نقول قولة واحدة وهى «كن» فيكون ذلك الشئ موجودًا وجودًا سريعًا كلمح البصر ، لايتأخر طرفة عين .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لكل عاقل بعض البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم على سبيل التكريم والمدح لها ، كما بينت جانبًا من مظاهر قدرة الله - تعالى - من نفاذ إرادته ومشيئته ، كما وضحت أن هذا الاصطفاء والاختيار والتفضيل لمريم يستلزم المداومة على كثرة الطاعات والصلوات ، كما قال - سبحانه - : ﴿ يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ .

وفى كل ذلك ما فيه من الحض لكل مسلم ومسلمة على أداء التكاليف التى كلفنا الله - تعالى - بها ، لأننا متى فعلنا ذلك زادنا - سبحانه - من فضله ومن خيره ومن آلائه ونعمه ؛ لأنه - سبحانه - لا يُضيع أجر من أحسن عملاً .

---

١ - سورة القمر . الآية : ٥٠ .

وفى السورة الكريمة التى سميت بسورة « مريم » تحدث القرآن الكريم عن جانب من نشأة « مريم » وعن تفرغها لعبادة الله - تعالى - فى « بيت المقدس » وعن المحاورات التى دارت بينها وبين جبريل - عليه السلام - الذى تَمَثَّل لها فى صورة بشر سوى ...

قال - تعالى - :

﴿ وَٱذۡكُرۡ
فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا (١٦) فَٱتَّخَذَتۡ
مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧)
قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ
وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ
وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾(١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : لما ذكر الله - تعالى - قصة زكريا - عليه السلام - وأنه - عزوجل - قد أوجد منه فى حال كبره ، وعقم زوجته ، ولداً زكياً مباركاً وهو يحيى - عليه السلام -

---

١ - سورة مريم . الآيات : ١٦ - ٢١ .

أتبع ذلك بذكر قصة مريم فى إيجاده - سبحانه - لولدها عيسى - عليه السلام - منها من غير أب . . .

وهى مريم ابنة عمران، من سلالة نبى الله داود - عليه السلام - وكانت من بيت طاهر فى بنى إسرائيل، ونشأت نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات . . .

والمعنى: واذكر - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة، أو فى القرآن خبر مريم وقصتها، وقت أن تباعدت عن أهلها واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ إذ انتبذت من أهلها ﴾ : إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها، إذ النبذ معناه : الطرح والرمى، فكأنها قد ألقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : والصحيح أنها انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًا لتعبد الله - تعالى - وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة بيت المقدس وخدمته وعبادة الله - تعالى - فيه، فتنحت عن الناس لذلك، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرفته لتخلو للعبادة .

فقوله - تعالى - : ﴿ مكانا شرقيا ﴾ أى : مكاناً من جانب الشرق .

والشرْق (بسكون الراء) : المكان الذى تشرق فيه الشمس ، والشرَق (بفتح الراء) : الشمس .

وإنما خُصَّ المكان بالشَّرْق ، لأن قومها فى زمانها كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ﴾ : تأكيداً لابتعادها عن أهلها ، واعتزالها إياهم .

أى : واذكر فى الكتاب مريم وقت أن اعتزلت أهلها ، فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، فاتخذت لنفسها من بينها ومن بينهم حجاباً وساتراً ؛ لتتفرغ لعبادة ربها .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما أكرم به مريم فى خلوتها فقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل ـ عليه السلام ـ فتشبه لها فى صورة بشر سوى ، معتدل الهيئة كامل البنية ، جميل الخِلقة ، كأحسن ما يكون الإنسان .

يقال : فلان رجل سوى ، إذا كان تام الخلقة ، عظيم الخُلق ، لايعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط .

والإضافة فى قوله : ﴿ روحنا ﴾ : للتشريف والتكريم ، وسمى

جبريل ـ عليه السلام ـ روحًا، لمشابهته الروح الحقيقية فى أن كُلاً منهما مادة الحياة للبشر، فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب، والروح تحيا به الأجسام.

وإنما تمثل لها جبريل ـ عليه السلام ـ فى صورة بشر سوى، لتفهم كلامه، وتتلقى منه ما يُلقيه إليها من أقوال، ولو ظهر لها فى صورته التى خلقه الله ـ تعالى ـ عليها، لنفرت منه، ولم تستطع مخاطبته.

ثم قص علينا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ الحكيم ما حدث بين مريم وبين جبريل ـ عليه السلام ـ من محاورات ومناقشات، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾.

أى: قالت مريم القانتة الطاهرة لجبريل ـ عليه السلام ـ الذى تمثل لها فى صورة إنسان سوى الخلقه: يا هذا، إنى أستجير بالرحمن منك، وألتجئ إلى جنابه لكى يحميني من إيذائك، فإن كنت ممن يتقى الله ـ تعالى ـ أيها الإنسان فابتعد عنى، واحذر أن تقترب منى.

وخصت لفظ الرحمن بالذكر من دون أسمائه الحسنى ـ عز وجل ـ لتثير فيه مشاعر التقوى، إذ من شأن الإنسان ذى التقوى والخشية من خالقه، أن ينتفض وجدانه عند ذكر لفظ الرحمن، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله.

وجواب الشرط فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إن كنت تقيا ﴾ محذوف . والتقدير : إن كنت تقياً ، فاتركنى وشأنى ، ودعنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة ربى .

وبهذا القول الذى وجهته مريم القانتة إلى جبريل الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى ، تكون قد جمعت فى خطابها معه بين الاعتصام بربها ، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله ـ تعالى ـ إن سولت له نفسه إرادتها بسوء . . . .

كما أن قولها هذا يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفاف والطهارة والبعد عن كل ريبة ، فهى تقول له هذا القول ، وهى تراه بشراً سوياً جميل الطلعة ، مكتمل الرجولة ، وهى وهو فى مكان بمعزل عن الناس . . .

ثم أخبر القرآن الكريم أن جبريل ـ عليه السلام ـ قد رد على مريم بما يطمئنها ويبعث فى قلبها السكون والاطمئنان فقال ـ تعالى ـ: ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ .

أى : قال لها جبريل ـ عليه السلام ـ ليُدخل السكون والراحة على نفسها : يا مريم ، إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، والتجأت إليه ، فلا تخافى ولا تجزعى ، وقد أرسلنى ـ عز وجل ـ إليك لأهب لك ـ بإذنه وقدرته ـ غلاماً زكياً طاهراً من الذنوب والمعاصى ، كثير الخيرات والبركات .

ونسب جبريل ـ عليه السلام ـ الهبة لنفسه فقال: ﴿ لأهب لك ﴾ لكونه سبباً فيها.

وقرأ نافع وأبوعمرو: «ليهب لك» (بالياء المفتوحة بعد اللام) على معنى: ليهب لك ربك غلاماً زكياً.

ومع هذا الكلام الذى قاله جبريل ـ عليه السلام ـ والذى من شأنه أن يبعث الاطمئنان فى نفس مريم، إلا أنها بقى التعجب والاستغراب مسيطراً عليها، نرى ذلك فى ردها على جبريل ـ عليه السلام ـ الذى أنبأ الله ـ تعالى ـ به فى قوله: ﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ﴾.

أى: قالت مريم لجبريل ـ عليه السلام ـ على سبيل التعجب مما سمعته: كيف يكون لى غلام، والحال أنى لم يمسسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله ـ تعالى ـ ولم أكُ فى يوم من الأيام بغيًّا ؟!

أى: فاجرة تبغى الرجال أو يبغونها ليرتكبوا معها الفاحشة التى حرمها الله.

يقال: بغَت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف.

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ: «جعل ـ سبحانه ـ المسّ عبارة عن الزواج الحلال، لأنه كناية عنه، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ ـ أى: من قبل أن تدخلوا بالنساء اللاتى أحل الله لكم

الزواج بهن - والزنا ليس كذلك، وإنما يقال فيه: فجر فلان بفلانة، وما أشبه ذلك، وليس بجدير أن تراعى فيه الكنايات والآداب، والمرأة البغى: هى المرأة الخارجة عن حدود الشرف والعفاف والحصانة ...» .

وعلى هذا الرأى الذى سار عليه صاحب الكشاف - رحمه الله - يكون ما قصه القرآن عن مريم من قولها: ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾: المقصود به الزواج الذى أحله الله بين الرجل والمرأة .

ويرى آخرون أن المقصود بقولها: ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾: ما يشمل الحلال والحرام . أى: ولم يمسسنى بشر كائناً من كان لا بزواج ولا بغيره، ويكون قوله - تعالى - : ﴿ ولم أك بغيا ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم، ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى -:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(1)

ويؤيده - أيضاً - أن لفظ « بشر » نكرة فى سياق النفى، فيعم كل بشر سواء أكان زوجاً أم غير زوج.

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - قوله: ﴿ ولم أك بغيا ﴾ . أى: زانية، وذكرت هذا تأكيداً، لأن قولها: ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾ يشمل الحلال والحرام.

---

١ - سورة آل عمران . الآية : ٤٧ .

وقال بعض العلماء: «وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل، لأنها عرفت بالعادة، أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل، فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لا تعلم أنه - عز وجل - قادر على خلق الولد ابتداء، كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله - تعالى - من غير أب أو أم ...» .

ثم بين - سبحانه - ما رد به جبريل - عليه السلام - على تعجب مريم واستبعادها لوجود ولد منها، مع أنها لم يمسسها بشر، ولم تكن فى يوم من الأيام تلتفت إلى ما يتعارض مع العفاف والطهارة، فقال - تعالى -: ﴿ قال كذلك قال ربك هو علىَّ هين ﴾ .

أى: قال لها جبريل - عليه السلام - زيادة فى اطمئنانها وتهدئة خاطرها: يا مريم، الحق كما تصفين من أنه لم يمسسك بشر، ولم تكونى فى يوم من الأيام من النساء اللائى يرتكبن ما نهى الله - تعالى - عنه، فأنت مثال للقنوت والنقاء فى كل وقت من أوقات حياتك، إلا أن ربك قد قال وقوله لا بد أن ينفذ : وجود الغلام منك دون أن يمسك بشر أمر هين وسهل وميسور على الله - تعالى - ومادام الأمر كذلك فاطمئنى ولا تجزعى ...

فقوله - سبحانه -: ﴿ قال ربك هو علىَّ هين ﴾: هذه الجملة الكريمة لغرس السكينة والهدوء النفسى فى قلب مريم، ولبيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شئ ...

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ : بيان للحكمة من وجود هذا الغلام من مريم التى لم يمسها بشر .

أى : فعلنا مافعلنا من وجود هذا الغلام منك يا مريم دون أن يمسك رجل ، لكى نجعل وجوده منك بهذه الصورة العجيبة دليلاً واضحًا ، ومعجزةً عظيمةً ، وبرهانًا ساطعًا أمام الناس جميعًا ، يشهد بقدرتنا ، وبوحدانيتنا وبأن الله - تعالى - وحده هو المستحق للعبادة والطاعة . ويشهد كذلك بأن الله - تعالى - الذى أوجد آدم - عليه السلام - أبا البشر من غير أب وأم ، قادر على أن يوجد ولدًا من غير أب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورحمة منا ﴾ : معطوف على ماقبله .

أى : وفعلنا ذلك - أيضًا - لنجعل هذا الغلام الذى وهبناه لك يامريم من غير أب ، رحمة منا لمن آمن به واتبع دعوته فى وجوب إخلاص العبادة لله وحده .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وكان أمرا مقضيا ﴾ . أى : وكان وجود هذا الغلام منك يا مريم بهذه الكيفية ، أمرًا مقدَّرًا فى الأزل ، ومسطورًا فى اللوح المحفوظ ، ولا بد من وقوعه دون تغيير أو تبديل .

وبذلك نرى فى هذه الآيات الحكيمة لونًا من الحوار الذى دار بين مريم وبين جبريل الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى ،

وصورة من عفافها وطهارتها عندما فوجئت بوجود رجل كامل الخلقة والجمال يدخل عليها فى خلوتها ليبشرها بغلام سيخرج منها دون أن يمسها بشر .

وبعد أن قصت سورة « مريم » جانباً من الحوار الذى دار بين « مريم » وبين جبريل ـ عليه السلام ـ الذى دخل عليها فى مكان عبادتها ، فى صورة بشر سوى ، وقال لها : ﴿ أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ .

بعد كل ذلك انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، بينت فيه حالتها عند حملها بولودها الكريم « عيسى » ـ عليه السلام ـ وحالتها عندما دنت ساعة ولادتها له ، وحالتها بعد أن ولدته ، وما قاله « عيسى » ـ عليه السلام ـ لأمه مريم بعد أن سمعها تقول بحزن وألم : ﴿ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ .

ويصور القرآن كل هذه المعانى بأسلوبه المؤثر الحكيم فيقول ـ سبحانه ـ :

﴿ فَحَمَلَتْهُ
فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ

أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[١]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه: يقول الله - تعالى - مُخبراً عن مريم أنها لمَّا قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال: استسلمت لقضائه - تعالى - فذكر غير واحد من علماء السلف، أن جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها - أى: قميصها - فوصلت النفخة - بإذن الله - إلى رحمها، فحدث الحمل بعيسى - عليه السلام -.

ثم قال - رحمه الله -: والمشهور عن جمهور العلماء أنها حملت به تسعة أشهر ... وعن ابن عباس أنه قال: « لم يكن إلا أن حملت فوضعت » . وهذا قول غريب ...

والمشهور والظاهر - والله على كل شئ قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن .

والفاء في قوله - تعالى -: ﴿ فحملته ﴾ هي الفصيحة . أى: وبعد أن قال جبريل لمريم: ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾.

---

١ - سورة مريم . الآيات: ٢٢ - ٢٦ .

نفخ فى جيب قميصها فحملت بعيسى - عليه السلام - بإذن الله ومشيئته - وبعد أن شعرت بالحمل تباعدت عن قومها إلى مكان بعيد عن الأماكن التى يسكنها أهلها، فقوله - تعالى -: ﴿ مكانا قصيا ﴾ : مكاناً بعيداً . يقال : قَصِىَ فلان عن فلان إذا ابتعد عنه.

وجمهور العلماء على أن المقصود بهذا المكان القصى: كان بمدينة بيت لحم بفلسطين .

قال ابن عباس: « المقصود بالمكان القصى هنا: أقصى الوادى، وهو وادى بيت لحم، فراراً من قومها أن يسيئوا بها الظن لولادتها دون أن يكون لها زوج » .

ثم تحدثت السورة الكريمة عما أصاب « مريم » من حزن وغم عندما أحست بقرب وقت الولادة، فقال - تعالى -: ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ .

وقوله - سبحانه -: ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ أى: فألجأها.

يقال: أجأته إلى مكان كذا، إذا ألجأته واضطرته إلى المجئ إلى هذا المكان .

ويقال: جاء فلان، وأجاءه غيره، إذا حمله على المجئ دون إرادته.

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ: « أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك تقول: جئت المكان، وأجانيه زيد ـ أى: وأوصلنى إليه زيد ـ » .

ولفظ المخاض: يطلق على الألم والوجع الذى ينزل بالمرأة قبيل وقت الولادة، يقال: مخضَت المرأة (بكسر الخاء) إذا قرب وقت ولادتها.

وهذا اللفظ مأخوذ من المَخْض، وهو الحركة الشديدة، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين فى بطن الأم عند قرب خروجه.

وجذع النخلة: ساقها الذى تقوم عليه.

والمعنى: وبعد أن حملت مريم بابنها عيسى ـ عليه السلام ـ وابتعدت به وهو محمول فى بطنها عن قومها، وحان وقت ولادتها، ألجأها التعب فى هذا الوقت إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة فأصابها فى هذه اللحظات الشاقة ما أصابها من غم وألم وحزن، وجعلت تقول: يا ليتنى قد نزل بى الموت قبل ما أنا فيه من آلام فى هذا اليوم، وكنت شيئاً منسياً متروكاً لا يعرفه أحد، ولا يذكره مخلوق ...

قال الإمام الآلوسى ـ رحمه الله ـ: « وإنما قالت مريم ذلك ـ مع أنها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل (عليه السلام) من الوعد الكريم ـ استحياءً من الناس، وخوفاً من لائمتهم ... » .

ثم قال ـ رحمه الله ـ: « وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه ـ لأنه يتعلق بأمر دينى ـ » .

نعم يُكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى: كمرض أو فقر، ففى الصحيحين عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [لا يتمنين أحدُكم الموت لضر أصابه ـ أى: فى دنياه ـ فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى] .

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ جانباً من إكرامه ورحمته « بمريم » فى تلك الساعات العصيبة من حياتها، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ .

والذى نادى مريم يرى بعض المفسرين أنه جبريل ـ عليه السلام ـ

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿من تحتها﴾ فيه قراءتان سبعيتان:

إحداهما: (بكسر الميم) فى لفظ « من » على أنه حرف جر، (وبكسر التاء الثانية) فى لفظ « تحتها » على أنه مجرور بحرف الجر . والمعنى: فناداها جبريل من مكان أسفل منها .

والقراءة الثانية: (بفتح الميم) فى لفظ « مَن » على أن هذا اللفظ اسم موصول بمعنى الذى (وبفتح التاء الثانية) فى لفظ «تحتَها» على أنه ظرف مكان، فيكون المعنى: فناداها الذى هو أسفل منها وهو جبريل ـ عليه السلام ـ

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : « قوله - تعالى - : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : المراد بمن تحتها جبريل - عليه السلام - ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، ففي هذا لها آية وعلامة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، والتى لله - تعالى - فيها مراد عظيم » .

ويرى جماعة من المفسرين : أن الذى نادى مريم من تحتها هو ابنها عيسى - عليه السلام - لأنه أقرب مذكور فى الكلام هنا .

فيكون المعنى : وبعد أن قالت مريم عند ولادتها لابنها عيسى - عليه السلام - : ﴿ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ ناداها ابنها عيسى - عليه السلام - الذى كان عندما وضعته موجودا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير - رحمه الله - هذا الرأى فقال : « وأولى القولين بالصواب فى ذلك عندنا ، قول من قال : أن الذى ناداها من تحتها ابنها عيسى - عليه السلام - » .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام ابن جرير - رحمه الله - من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء من عيسى - عليه السلام - لأمه « مريم » فى تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها . . .

فيكون المعنى : فناداها ابنها عيسى - عليه السلام - الذى كان أسفل منها عندما ولدته ، مطمئناً إياها بأن قال لها : يا أمى ، لا تحزنى ولاتبتئسى خوفاً من كلام الناس ، بل اطمئنى وأبشرى ، فقد جعل الله - تعالى - لك من تحتك ﴿ سريا ﴾ أى : نهراً صغيراً من الماء ، لتأخذى من هذا الماء الطهور ما أنت فى حاجة إليه فى الشراب وغيره .

وسُمى النهر الصغير من الماء « سريًّا » لأن الماء يسرى فيه ، ويتحرك من جهة لأخرى .

وقد جاء عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال : «السَّرِى : نهر أخرجه الله لمريم لتشرب منه» .

وقيل المقصود بلفظ « السرى» هنا : عيسى نفسه - عليه السلام - لأن لفظ السرى مأخوذ من السَّرْو بمعنى : الرفعة والشرف .

فيكون المعنى : قد جعل ربك من تحتك يا مريم إنساناً رفيع القدر ، وهو ابنك عيسى ، فافرحى به لأنه سيكون شرفاً لك ، ورفعة لمنزلتك .

ويبدو لنا أن الرأى الأول الذى يقول أصحابه أن المقصود بلفظ السرى هنا : نهر صغير من الماء ، هو الأقرب إلى الصواب ، لوجود بعض الآثار التى وردت عن السلف فى ذلك ولأن قول الله - تعالى - بعد هذه الآية : ﴿ فكلى واشربى وقرى عينا ﴾ . قرينة على أن

ذلك المأكول والمشروب هو ماتقدم الامتنان به فى قوله ـ عزوجل ـ : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكتف فى إدخاله السرور والاطمئنان على قلب أمه بقوله لها : ﴿ ألا تحزنى قدجعل ربك تحتك سريا ﴾ بل أرشدها إلى ما ينفعها فى مأكلها ومشربها وصلاح بالها، فقال لها : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا ﴾ .

أى : وقال عيسى ـ عليه السلام ـ لأمه زيادة فى سرورها واطمئنانها : يا أماه، إذا ماشعرت بحاجة إلى الطعام، فحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ـ أى : ساقها ـ : ﴿ تساقط عليك رطبا ﴾ وهو ما نضج من التمر واستوى ولذَّ أكله ﴿ جنيا ﴾ أى : رطباً صالحاً للأخذ والاجتناء لاستوائه وسهولته ونعومته ومنفعته . . .

﴿ فكلى ﴾ من ذلك الرطب ﴿ واشربى ﴾ من هذا النهر السَّرى السائغ الشراب ﴿ وقرى عينا ﴾ أى : وطيبى نفساً بسبب وجودى من تحتك، واطردى الأحزان عنك .

يقال : قرت عين فلان، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته، وهذا اللفظ « قرى » مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة: أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب، وأن هذه المباشرة لأسباب الرزق لا تتنافى مع التوكل على الله؛ لأن الإنسان العاقل هو الذى يتعاطى الأسباب التى توصله إلى مقاصده الشريفة، امتثالاً لأمر ربه، مع علمه ويقينه أنه لا يقع فى ملكه ـ تعالى ـ إلا ماشاءه وأراده.

وفى هذه الآية الكريمة قد أمر الله ـ تعالى ـ « مريم » ـ على لسان ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب مع قدرته ـ عز وجل ـ على إسقاط وإنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك.

ورحم الله القائل:

ألم تر أن الله قال لمريم ∴ وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ∴ جنته ولكن كل شئ له سبب

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾: حكاية منه ـ عز وجل ـ لبقية كلام عيسى ـ عليه السلام ـ لأمه مريم.

والمعنى: أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد قال لأمه على سبيل التثبيت وإدخال السرور والاطمئنان على نفسها: يا أماه لاتحزنى بسبب وجودى منك دون أب انتسب إليه، وقرى عيناً، وطيبى نفساً،

فإذا ما قابلك أحد من البشر، فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له: ﴿ إنى نذرت للرحمن صوما ﴾ أى : سكوتا عن الكلام، ولن أكلم اليوم أحداً من البشر لا فى شأن هذا المولود، ولا فى شأن غيره.

قال العلماء: وكان هذا السكوت فى شريعتهم، يعد من ألوان العبادة والطاعة لله رب العالمين .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها البليغ الحكيم، ما فعلته مريم عندما أحست بالحمل، وما قالته عندما شعرت بقرب الولادة، وما قاله لها ابنها الكريم عيسى - عليه السلام - من كلام جميل، ومن منطق حكيم، لإدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد جديد من مشاهد تلك القصة العجيبة، مشهد « مريم » عندما جاءت بابنها عيسى - عليه السلام - إلى قومها، وبيان ما قالوه لها، وبيان ما قاله لهم ابنها عيسى - عليه السلام - فى الرد عليهم.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص تلك المحاورات بأسلوبه الحكيم فيقول:

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ

شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا
(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا
بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة.

وتقدير الكلام: وبعد أن استمعت مريم إلى كلام ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ الذى منه قوله لها فيما سبق: ﴿ ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ .

بعد أن استمعت إلى هذا الكلام الحكيم من ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ: اطمأنت نفسها، وقرت عينها، وثبت يقينها، وأتت بمولودها عيسى إلى قومها، وهى تحمله معها من المكان البعيد الذى اعتزلت فيه قومها...

---

١ ـ سورة مريم . الآيات : ٢٧ ـ ٣٣ .

فعندما أبصرها قومها ومعها وليدها دهشوا وتعجبوا وقالوا باستنكار : ﴿ يا مريم لقد جئت شيئا فريا ﴾ .

أى: قالوا لها لقد فعلت شيئاً منكراً عجيباً فى بابه، حيث أتيت بولد دون أن يكون لك زوج نعرفه . ولفظ « فريا » مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته. أى: لقد جئت يا مريم شيئاً قاطعاً وخارقاً للعادة .

ومقصدهم: أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى، كما قال - تعالى - فى آية أخرى:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ (1)

ويدل على أنهم بقولهم هذا يقصدون الإساءة إلى مريم : قولهم بعد ذلك : ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ .

أى: أنت يا مريم لم يكن أبوك فى يوم من الأيام رجلاً معروفاً بارتكاب الفاحشة، وإنما كان معروفاً باستقامته وطهارته، وكذلك لم تكن أمك فى يوم من الأيام معروفة بانحرافها عن طريق الفضيلة، بل كانت مثالاً للطهارة والنقاء والعفاف.

1 - سورة النساء . الآية : 156 .

وليس المقصود بهارون الذى جاء فى الآية الكريمة، هارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - وإنما المقصود به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى، فشبهوها به، أو المقصود به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم، وكان - أيضاً - معروفاً باستقامته وطهارته. أى: يا أخت هارون فى كثرة العبادة والتزام الفضائل.

قال الآلوسى - رحمه الله - ما ملخصه: قوله - تعالى -: ﴿ يا أخت هارون ﴾: استئناف لتجديد الاستنكار، ولتأكيد التوبيخ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - فقد جاء فى الحديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - قال: «بعثنى رسول الله - ﷺ - إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون: ﴿ يا أخت هارون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: [ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم].

وعلى أية حال فإن مقصدهم بقولهم هذا هو اتهام « مريم » بما هى بريئة منه، والتعجب من حالها، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة، ومع ذلك لم تسلك مسلكهم.

وبعد أن استمعت « مريم » إلى هذا الاستنكار والتوبيخ الذى وجهه قومها إليها، بسبب ميلادها لولد دون أن يعرفوا لها زوجاً شرعياً ...

بدأت « مريم » في الدفاع عن نفسها وعن كرامتها، عن طريق وليدها الذى أوصاها بالصمت والسكوت، وقال لها : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ .

ويوضح القرآن الكريم أن « مريم » تركت أمر الدفاع عنها لابنها فيقول: ﴿ فأشارت إليه ﴾ . أى: فأشارت إلى ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ ولسان حالها يقول لهم: وجهوا كلامكم إلى ابنى فإنه سيخبركم بحقيقة أمرى وأمره، وحالي وحاله !!

ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها، بل قالوا لها بشئ من التعجب: ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبيا ﴾ .

أى: قالوا لها: كيف نكلم صبيًّا صغيراً مازال في مهده وفي حال رضاعه؟!!

ولكن عيسى ـ عليه السلام ـ أنطقه الله ـ تعالى ـ بما يشهد بصدق أمه « مريم » وبطهارتها وبعفافها وبحصانتها من كل ما لا يليق بالشرفاء الأخيار، فماذا قال لهم ؟

﴿ قال إني عبد الله ﴾ أى : قال عيسى ـ عليه السلام ـ في رده على المنكرين على أمه إتيانها به دون أب شرعي: إنى عبد من عباد الله ـ تعالى ـ أوجدني بقدرته التي لا يعجزها شئ، فأنا عبده،

وأنتم ـ أيضـاً ـ عبيـده ، وهذا الخالق العظيم ﴿ آتانى الكتاب ﴾ . أى : سبق فى قضائه إعطائى التوراة أو الإنجيل أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل ، تنزيلاً لتحقق الوقوع ، منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾(١)

ومنها قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾(٢)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وجعلنى نبيا ﴾ : فضيلة ثالثة من الفضائل التى أكرم الله بها عبده عيسى ـ عليه السلام ـ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وجعلنى مباركا أينما كنت ﴾ : فضيلة رابعة من الفضائل التى مدح الله ـ تعالى ـ بها نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ . أى : وجعلنى ربى ـ بفضله وإحسانه ـ كثير الخيرات والبركات أينما حللت وحيث ما كنت .

وفضلاً عن كل ذلك فقد أوصانى خالقى ـ عز وجل ـ أن أحافظ على الصلاة وعلى أداء الزكاة مادمت حياً فى هذه الدنيا وأوصانى ـ أيضاً ـ أن أكون باراً ومطيعاً لوالدتى « مريم » ومحسناً إليها . . .

---

١ ـ سورة النحل ، الآية : ١ .

٢ ـ سورة يس ، الآية : ٥١ .

﴿ ولم يجعلني ﴾ ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه ﴿ جبارا شقيا ﴾ أي: ولم يجعلني مغرورًا متكبرًا مرتكبًا للمعاصي وللموبقات التي نهاني ـ سبحانه ـ عن الاقتراب منها.

ثم ختم عيسى ـ عليه السلام ـ رده على الذين أساءوا الظن بوالدته، بالثناء على نفسه وعلى والدته الطاهرة القانتة بقوله: ﴿ والسلام ﴾ والأمان منه ـ تعالى ـ ﴿ عليّ يوم ولدت ﴾ من رحم أمي التي أنبتها الله ـ بفضله وكرمه ـ نباتًا حسنًا ﴿ ويوم أموت ﴾ مفارقًا هذه الدنيا ﴿ ويوم أبعث حيا ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة.

فأنت ترى أن عيسى ـ عليه السلام ـ في هذه الآيات قد لبى نداء وإشارة أمه في الدفاع عنها، ووصف نفسه ـ وهو قطعة منها ـ بمجموعة من الصفات الفاضلة، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين؛ لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التي لا حق سواها، ولتحذير أعدائه من وصفه هو وأمه بأى صفة بعيدة عن الحق والصواب، واختتمها برجاء الأمان والسلام له ولوالدته في جميع أطوار حياتهما.

والذى يتدبر الآيات القرآنية التى تحدثت عن « مريم » ـ عليها السلام ـ يراها قد مدحت هذه المرأة القانتة الطاهرة مدحًا عظيمًا، وأثنت عليها ثناءً جميلاً . . .

مدحتها: بأنها من أسرة كريمة، فأبوها « عمران » الذى تنتهى

سلسلة نسبه إلى « إبراهيم » ـ عليه السلام ـ وأمها تلك المرأة التى نذرت ما فى بطنها ـ وهى مريم ـ لخدمة بيت من أشرف بيوت الله، وهو المسجد الأقصى الذى بارك الله ـ تعالى ـ حوله .

مدحتها : بأن شهد الله ـ تعالى ـ لها بالقبول عنده، وتولاها برعايته وعنايته، بأن أنبتها نباتاً حسناً، وهيأ لكفالتها نبياً من أنبيائه الكرام هو زكريا ـ عليه السلام ـ وأرسل لها ـ عز وجل ـ من عنده وهى فى مكان عبادتها لخالقها، رزقاً هنيئاً مريئاً من الطعام والشراب، وعندما سُئلت عن مصدر هذا الرزق الوفير اللذيذ، نسبته إلى الله ـ تعالى ـ مما يدل على قوة إيمانها، وصفاء قلبها، وسمو خُلقها، وشكرها لخالقها ـ عز وجل ـ.

مدحتها : بأن بشرتها الملائكة بأن الله ـ تعالى ـ قد اصطفاها واختارها لخدمة بيته، وطهرها من كل ما لا يليق، وفضَّلها على كل نساء الدنيا فى زمانها، وأمَرَها ـ سبحانه ـ بالمداومة على عبادته وطاعته بخشوع وقنوت، فَوَفَّت بما أمرها الله ـ تعالى ـ به على أكمل وجه.

مدحتها : بأن بشَّرتها الملائكة ـ أيضاً ـ بأنها ستكون « أماً » لرسول من أولى العزم من الرسل هو « عيسى ابن مريم » ـ عليه السلام ـ الذى وصفه الله ـ تعالى ـ بالأوصاف السامية التى منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ... وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ

﴿ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١)

مدحتها : بالأنوثة الطاهرة ، وبالعفاف السامى ، فهى عندما تمثل لها جبريل ـ عليه السلام ـ فى صورة رجل كامل الرجولة والهيئة ، لم تتسرب إلى قلبها ـ المليئ بالخوف من الله ـ أية ريبة أو شهوة تتنافى مع مكارم الأخلاق ، مع كمال أنوثتها ، ومع تفردها مع هذا الإنسان السوى ، بل قالت له بكل وضوح وحزم وقوة : ابتعد عنى واتركنى فى خلوتى ؛ لأتفرغ لعبادة ربى ، وإنى ألتجئ وأعتصم بالرحمن منك ، فانصرف بعيداً فإنى أحذرك من عقاب الله ـ تعالى ـ.

مدحتها : بأنها مع شعورها بأن الذى بشرها بأن الله ـ تعالى ـ سيهب لها غلاماً زكياً هو ملك من الملائكة ، وأن هذا الغلام سيكون من غير أب ، وأن ذلك أمر هين على الله ـ تعالى ـ لأن قدرته لا يعجزها شئ . . .

ومع استسلامها بعد كل ذلك لقضاء الله وقدره ، إلا أنها عندما حان وقت ولادتها بهذا الغلام الزكى ، والنبى الكريم ، أحست بما تحس به كل أنثى طاهرة عفيفة ، خالفت ـ بولادتها من غير أن يمسها بشر ـ عادة الناس ، وخشيت من إساءتهم إليها ، فقالت ﴿ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ .

وهذا من أكبر الأدلة على كمال أنوثتها ، وعلى أنها تستحى أن تخالف ما جرى عليه العرف بين الناس .

---

١ ـ سورة آل عمران . الآيتان : ٤٥ ـ ٤٦ .

مدحتها: بما يشهد بأن المرأة فى كل زمان ومكان هى المرأة، لها خصائصها التى وهبها الله - تعالى - لها، وأن الرجل فى كل زمان ومكان هو الرجل، له خصائصه التى وهبها الله - تعالى - له.

ومن هذه الخصائص: أن المرأة عندما تتعرض لما لا تريده من قول أو فعل، تلجأ إلى الرجل لكى يدافع عنها، فقوم « مريم » عندما قالوا لها: ﴿ لقد جئت شيئا فريا ﴾ لجأت إلى ابنها ليتولى الدفاع عنها، فلبى طلبها وقال لقومها:

﴿ ... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾(١)

مدحتها: بأن أخبرت بأن الله - تعالى - قد جعلها هى وابنها من أعظم الأدلة على قدرته، فقال - تعالى -:

﴿ ... وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾(٢)

أى: وجعلنا نبينا عيسى - عليه السلام - وأمه «مريم» آية واضحة، وحجة عظيمة على وحدانيتنا وقدرتنا التى لا يعجزها شئ،

---

١ - سورة مريم . الآيات: ٣٠ - ٣٢ .
٢ - سورة المؤمنون . الآية: ٥٠ .

وأسكناهما وأنزلناهما في جهة مرتفعة من الأرض، وهذه الجهة تمتاز بالاستواء والصلاحية للسكن لما فيها من الزروع والثمار، ولما فيها من المياه العذبة الظاهرة للعيون في ربوعها كأرض : فلسطين والشام ومصر.

مدحتها: بالحصانة من كل سوء، وبالإيمان بشرائع الله - تعالى - وبكتبه، وبالمداومة على طاعة الله - تعالى - مع الخشوع .

قال - تعالى -:

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[1]

أى: والثناء الجميل من الله - تعالى - على « مريم » ابنة عمران، التي صانت موطن عفافها من كل ما لا يليق، فنفخ فيه جبريل بأمر ربه، فكان ابنها عيسى، والتى صدقت وآمنت بشرائع الله وأوامره ونواهيه وكتبه التى أنزلها على رسله، والتى كانت من المواظبين على طاعة الله وعبادته بإخلاص ومحبة.

هذا جانب من حياة « مريم » - عليها السلام - من فضائلها ومناقبها الكريمة التي جعلتها ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

---

١ - سورة التحريم . الآية : ١٢ .

٥ - بلقيس ملكة سبأ

حديث القرآن الكريم فى هذه الآيات التى سنذكرها بعد قليل، عن امرأة رزقها الله - تعالى - العقل السليم، والفكر القويم، والحكمة الحكيمة :

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١)

عن امرأة حكمت قومها بخصائص الأنثى التى تؤثر السلام على الحرب، والأمان على الخوف، والتعمير على التخريب، والتواضع على الغرور، والمشورة على الاستبداد بالرأى، وتقديم الهدايا التى تسر على التهديدات والإنذارات التى تضر، والاستجابة للحق بعد أن تبين لها، على الباطل الذى كان عليه قومها.

وبما أن هذه المرأة صاحبة المناقب المتنوعة، كانت تعيش فى زمن نبى كريم جمع الله - تعالى - له بين النبوة والمُلك، وبما أن محاوراتها كانت معه . . .

فقد مهَّد القرآن للحديث عنها، بالحديث عن جانب من أخبار سليمان ومن أخبار أبيه داود - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

---

١ - سورة البقرة . الآية : ٢٦٩ .
٢ - سورة النمل . الآية : ١٥ .

وداود ـ عليه السلام ـ هو ابن يَسَّى من سبط يهوذا، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق.م تقريباً، وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق.م تقريباً.

وسليمان ـ عليه السلام ـ هو ابن داود، وكانت ولادته حوالى سنة ١٠٤٣ ق.م، ووفاته حوالى سنة ٩٧٥ ق.م

والمعنى: والله لقد آتينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً، فعملا به وشكرا خالقهما عليه، وقالا: الحمد لله الذى فضَّلنا بسبب ما آتانا من علم على كثير من عباده المؤمنين، الذين لم ينالوا مانلنا من خيره وبره ـ سبحانه ـ

قال الإمام الزمخشرى صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية: « وفى الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجَلِ النِّعم، وأجزل المنن، وأنَّ منْ أُوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد ».

ثم بين ـ سبحانه ـ نعمة أخرى من نعمه على سليمان ـ عليه السلام ـ فقال:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١)

---

١ ـ سورة النمل. الآية: ١٦.

أى: وورث سليمان أباه داود فى النبوة والعلم والملك، وقال سليمان ـ على سبيل الشكر له ـ : يا أيها الناس، علَّمنا الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه لغة الطير وفهَّمنا إياها، وأعطانا ـ عز وجل ـ من كل شئ نحتاجه فى ديننا ودنيانا، إن هذا العطاء من خالقنا لهو الفضل الواسع الذى يميزنا على من سوانا .

ثم انتقلت سورة « النمل » إلى الحديث عن مظاهر مُلك سليمان ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[1]

ولفظ « الحشر » بمعنى الجمع، ولفظ « يوزعون » بمعنى يُنظَّمون ويُرتَّبون حتى لا يختلط بعضهم ببعض.

والمعنى: وجمع الله ـ تعالى ـ لنبيه سليمان ـ عليه السلام ـ عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير، فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب، بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها.

---

١ ـ سورة النمل . الآية : ١٧ .

ثم أخبرنا - سبحانه - عما قالته نملة عندما رأت هذا الجيش العظيم المنظم، فقال - تعالى - :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (١)

أى : وجمع الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - جنوده من الجن والإنس والطير، وساروا جميعاً فى قوة ونظام، حتى إذا وصلوا جميعاً إلى مكان يعيش فيه النمل فى مملكة سليمان، قالت نملة لزميلاتها على سبيل النصح والتحذير، يا أيها النمل ادخلوا أماكن سكناكم، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير، خوفاً من أن يهلككم ويقتلكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم .

ثم بين - سبحانه - شعور نبيه سليمان بعد أن سمع ما قالته تلك النملة، فقال - تعالى -:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٢)

---

١ - سورة النمل . الآية : ١٨ .

٢ - سورة النمل . الآية : ١٩ .

أى : وسمع سليمان ما قالته تلك النملة، فتبسم ضاحكًا لفطنتها، واستشعر نعمة الله ـ تعالى ـ عليه، وقال : يارب، ألهمنى ووفقنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ، ووفقنى ـ أيضًا ـ لكى أعمل العمل الصالح الذى تقبله وترضاه، وأدخلنى ـ وأنت أرحم الراحمين ـ فى زمرة عبادك الصالحين الذين رضيت عنهم ورضوا عنك.

ثم تبدأ سورة « النمل » فى عرض جملة من المشاهد المتنوعة، والمحاورات المتعددة، والمناقشات المثيرة ...

وكان المشهد الأول : الإخبار عما دار بين سليمان ـ عليه السلام ـ وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد، ويسوق القرآن هذا المشهد بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

ولفظ « التفقد » معناه : التَّطلع والتعرف على أحوال الغير.

---

١ ـ سورة النمل . الآية : ٢٠ ـ ٢١ .

والمعنى: وأشرف سليمان ـ عليه السلام ـ على أفراد مملكته ليعرف أحوالها، فقال بعد أن نظر فى أنواع الطيور التى تضمها مملكته الواسعة: ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد؟ ثم تأكد من غيابه عن عينيه فقال: بل هو من الغائبين.

ثم أصدر سليمان حكمه على ذلك الهدهد بسبب غيابه دون إذنه فقال: لأعذبنه عذاباً شديداً يؤلمه، أو لأذبحنه، أو ليأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه، وتقنعنى بالصفح عنه...

فأنت ترى أن نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ وهو الملك الحكيم العادل، يُقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه، بعدم إتيانه بالعذر المقبول عن سبب غيابه، أما إذا أتى بهذا العذر المقبول فإنه سيترك معاقبته.

هذا ما قاله سليمان ـ عليه السلام ـ عندما تفقد الطير فلم ير الهدهد، فماذا كان من شأن هذا الهدهد؟ كان من شأنه أن قال كلاماً فيه ما فيه من الثقة والإقناع، وقد أخبر القرآن عن ذلك فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[1]

١ ـ سورة النمل . الآية : ٢٢ .

والمعنى: فمكث الهدهد زماناً قصيراً بعد تهديد سليمان له، ثم حضر وقال لسليمان ـ عليه السلام ـ: يا سليمان، أنا عرفت أشياء أنت لم تعرفها، واستمع إليَّ بإصغاء، فأنا قد جئتك من جهة قبيلة سبأ التى بأرض اليمن، بأخبار عظيمة، أنا متيقن من صدقها.

ثم قص عليه ما شاهده فقال:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ
مِن كُلِّ شَيۡءٍ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ
لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (١)

أى: الهدهد واصل حديثه مع سليمان ـ عليه السلام ـ فقال له بعد أن فاجأه بأنه علم ما لم يعلمه: إني وجدت قبيلة سبأ تحكمها امرأة، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض، أو ينافسها منافس، وهذه المرأة بين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها، والمحافظة على قوتها وأمنها ورخائها، وفضلاً عن كل ذلك لها أدوات مُلك فخم ضخم يدل على غناها ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها.

---

١ ـ سورة النمل. الآيات: ٢٣ ـ ٢٦.

والمقصود بهذه المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريَّان ، وكانت قد ورثت المُلك عن أبيها.

ثم أضاف إلى ذلك قوله : وإني وجدت أن هذه المرأة هي وقومها يعبدون الشمس ويتركون عبادة الله ـ تعالى ـ وزين وحسَّن لهم الشيطان هذه العبادة الباطلة ، فمنعهم عن اتباع الحق ، فهم بسبب ذلك كانوا من الضالين ،وكان من الواجب عليهم ـ لوكانوا يعقلون ـ أن يجعلوا عبادتهم خالصة لله ـ تعالى ـ الذى يظهر الشئ الخفى المختبئ فى السموات أو فى الأرض ، والذى يعلم ما تخفون من أسرار ، ويعلم ماتعلنون من أقوال . . .

وعلى كل عاقل أن يوقن بأن العبادة لا تكون إلا لله ـ تعالى ـ صاحب العرش العظيم الذى لا شبيه له ولا مثيل .

واستمع نبى الله ـ سليمان ـ عليه السلام ـ إلى الهدهد بإنصات وتفكر ، ثم قال له ـ كما ذكر القرآن الكريم ـ :

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٢٧ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾[1]

أى : قال سليمان ـ عليه السلام ـ للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر ـ أيها الهدهد ـ فى أقوالك ونرى أكنت صادقًا فيها ، أم أنت من الكاذبين.

١ ـ سورة النمل . الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨ .

وهكذا نرى نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ وهو العاقل الحكيم ـ لا يتسرع في تصديق الهدهد أو تكذيبه، ولم يخرجه النبأ العظيم الذى جاءه به الهدهد عن اتزانه ووقاره، وإنما يبنى أحكامه على ماسيُسفر عنه تحققه من صدق خبره أو عدم صدقه، وهذا هو اللائق بشأن النبى الكريم الذى آتاه الله النبوة والمُلك والحكمة.

ثم يأمره بقوله: خذ ـ أيها الهدهد ـ كتابى هذا، فاذهب به إلى أهل سبأ فألقه إليهم، ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم، فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض، ثم أخبرنى بما يقولونه.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد، فحمله وذهب به إلى بلادهم، فجاء فى قصر بلقيس، وإلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها، فألقاه إليها من فتحة هنالك بين يديها، ثم ابتعد قليلاً عنها، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، وفتحت ختمه وقرأته ...».

ثم يأتى مشهد آخر من مشاهد تلك القصة. مشهد ملكة سبأ وقد فوجئت بكتاب فى بيتها لا تعرف مصدره بعد، ففتحته وقرأته وفهمته واهتمت بما جاء فيه، وجمعت مجلس وزرائها ومستشاريها فماذا قالت لهم ؟

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص هذه المعانى بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (١)

والمعنى: وبعد أن ألقى الهدهد كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ فى حجرة ملكة سبأ، وبعد أن قرأته وفهمته جمعت أشراف قومها، وسمعها الهدهد وهى تقول لهم: يا أيها الزعماء من أهلى وقومى ﴿ إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم ﴾ فبدأت بوصفه بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم، وعلى الأسلوب البديع، وعلى التوجيه الحسن، وعلى جمال هيئته، وعجيب أمره.

ثم أفصحت عن مصدره فقالت: ﴿ إنه من سليمان ﴾ ـ عليه السلام ـ ثم أخبرت عن مضمونه فقالت: ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم والسمو والرفعة، حيث اشتمل على اسم الله ـ تعالى ـ وعلى بعض صفاته الجليلة، وعلى ترك التكبر والغرور، وعلى وجوب اعتناق الدين الحق، كما يشير إلى ذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ ألا تعلو علىَّ ﴾ أى: ألا تتكبروا ولا تتعاظموا علىَّ فيما دعوتكم إليه ...

---

١ ـ سورة النمل. الآيات: ٢٩ ـ ٣٢.

﴿ وأتونى مسلمين ﴾ أى: وأَقْبِلوا إلىَّ منقادين طائعين لشريعة الله - تعالى - وحده، التى توجب عليكم إخلاص العبادة لخالقكم دون أحد سواه، لأنه هو الخالق لكل شئ، وكل معبود سواه فهو باطل.

فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة والحكمة، ولمظاهر القوة العادلة، التى اتبعها سليمان - عليه السلام - فى رسالته إلى ملكة سبأ وإلى قومها .

وبعد أن أخبرت رءوس قومها بمصدر الكتاب ومضمونه، استأنفت حديثها فقالت : ﴿ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ﴾ .

والفتوى معناها: الجواب على المستفتى فيما سأل عنه، والمقصود بها هنا: المشورة وإبداء الرأى .

أى: قالت هذه الملكة الحكيمة: يا أيها الأشراف من قومى، أشيروا علىَّ، ماذا سأفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان - عليه السلام - والذى يطلب منى فيه ما سمعتم ؟

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ .

أى : أنتم تعلمون أنى لا أفصل ولا أحكم فى أمر يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم والاستماع إلى رأيكم.

وفى قولها هذا : دليل على حسن سياستها، ورجاحة عقلها، حيث جمعت رءوس مملكتها، واستشارتهم فى أمرها، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها، وبذلك طابت نفوسهم، وزادت ثقتهم فيها.

وبعد هذا العرض الحكيم لقضية الكتاب الذى تلقته ملكة سبأ من سليمان - عليه السلام - وبعد أن وضحت هذه الملكة لأشراف مملكتها وقادتها مصدر الكتاب ومضمونه، وبعد أن أفهمتهم أنها لاتفصل فى أمر مهم من أمور مملكتهم إلا بعد مشورتهم . . .

بعد كل ذلك تطلعت إلى رأيهم، فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(١)

أى: قال زعماء مملكة سبأ فى الرد على ملكتهم: أيتها الملكة، لقد فهمنا القضية فهماً تاماً، وإننا - كما تعلمين - أصحاب قوة فى العتاد، وأصحاب بلاء عظيم فى ساحة القتال، ومع ذلك فأمر القتال متروك لرأيك فى النهاية، وإلى ماتطمئن إليه نفسك من قرار، فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب، فنحن سنطيعك فى كل ماتطلبينه منا ! !

---

١ - سورة النمل . الآية : ٣٣ .

وتمضى آيات القرآن فى عرض تلك المحاورات بين ملكة سبأ وبين جنودها بهذا الأسلوب المثير الحكيم فتقول :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1]

أى : قالت ملكة قبيلة سبأ لجنودها بعد أن استمعت إلى زعماء مملكتها : اعلموا أن الملوك من عاداتهم أنهم إذا دخلوا بجيوشهم قرية من القرى، أو مدينة من المدن، بعد انتصارهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال، أشاعوا فى تلك القرية أو المدينة الفساد والخراب والدمار .

وفوق ذلك جعلوا أشرافها ورؤساءها أذلة بعد أن كانوا أعزة ليكونوا عبرة لغيرهم، وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى، عن طريق القهر والقسر وسفك الدماء .

والمقصود من وراء قولها هذا فيما يبدو : التلويح لقومها بأن السِّلم أجدى من الحرب، وأن الملاينة مع سليمان ـ عليه السلام ـ أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

---

١ ـ سورة النمل . الآيتان : ٣٤ ـ ٣٥ .

ثم صرحت لجنودها بما ستفعله مع سليمان ـ عليه السلام ـ ومع حاشيته، فقالت: وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان ـ عليه السلام ـ وإلى زعماء قومه، هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان، وإنى لمنتظرة ومترقبة ماذا سيقول سليمان ـ عليه السلام ـ لرسلى عندما يرى تلك الهدية الثمينة، وماذا سيفعل معهم ؟

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: « قالت لقومها: إن تقبَّل الهدية فهو مَلِك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه » .

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ: « رحمها الله ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها، لقد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس » .

وتقص علينا السورة الكريمة «سورة النمل» مشهداً جديداً، وفصلاً جديداً من فصول هذه القصة، مشهد سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ عندما وصل إليه رسل ملكة سبأ، ومعهم الهدايا الثمينة التى سيقدمونها إليه وإلى حاشيته من ملكتهم التى أوتيت من كل شئ ...

قال ـ تعالى ـ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦)

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١)

وفى الكلام حذف يفهم من سياق القصة، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم، والتقدير : وأعدت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان ولحاشيته، وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة، فلما وصل الرسل إلى سليمان ـ عليه السلام ـ ومعهم هدية ملكتهم إليه، ورآها سليمان ـ عليه السلام ـ ما كان منه إلا أن قال لهم على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية: ﴿ أتمدونن بمال ﴾ أى: أتقدمون إلىَّ هذا المال الزائل والمتمثل فى هذه الهدية، لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله رب العالمين، وتاركون لعبادة غيره ؟!!

كلا لن ألتفت إلى هديتكم ،فما أعطانى الله ـ عزوجل ـ من النبوة ومن المُلك الواسع، خير مما آتاكم من أموال من جملتها تلك الهدية، فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم، ولاستخفافه بها، وسخريته منها .

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ : إضراب عما ذكره سليمان ـ عليه السلام ـ من إنكاره لتلك الهدية، وتعليله لهذا

---

١ ـ سورة النمل ، الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .

الإنكار، إلى بيـان مـا هم عليـه من ضـيق الأفق، ومن انحـراف التفكير، حيث توهموا أن هذه الهدية، قد تفيد في منع سليمان ـ عليه السلام ـ عن دعوتهم إلى إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ وفي حمله على تركهم وشأنهم بالنسبة لعبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ

وكأنه ـ عليه السلام ـ يقول لهم: افهموا ـ أيها الرسل ـ وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية: إن سليمـان ـ عليـه السلام ـ مـا آتاه الله من أموال ومن خيرات، أعظم وأكثر وأفضل مما آتاكم، وإنه يقول لكم جميعاً: انتفعوا أنتم بهديتكم هذه وافرحوا بها، لأنكم لا تفكرون إلا في متاع الحياة الدنيا، أما أنا ففي غنى عن هداياكم، ولا يهمني إلا إيمانكم بالحق، وإخلاصكم العبادة لله رب العالمين.

ثم أتبع سليمـان ـ عليـه السلام ـ هذا الاستنكار بالتهديد، فقال للوفد الذي جاء بهدية من ملكتهم: عد من حيث أتيت ومعك هديتك، فوالله لنأتينهم بجنود لا قدرة لهم على مقاومتهم، ولاطاقة لهم على قتالهم، ووالله لنخرجنهم من بلاد سبأ حالة كونهم أذلة، وحالة كونهم مهزومين صاغرين مقهورين، بعد أن كانوا في عزة وقوة.

وعاد رسل ملكة سبأ بهديتهم، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك، لأن القرآن الكريم، لا يهتم إلا بالجوهر واللباب فيما يقصه من أحداث.

ويأتي بعد ذلك مشهد جديد يقص علينا القرآن الكريم فيه ما حدث بين سليمان - عليه السلام - وبين جنوده من محاورات ومن مطالب طلبها سليمان - عليه السلام - من جنوده، فقال - تعالى -:

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : « وحين وصل رسل ملكة سبأ إليها، وأخبروها بما قاله سليمان لهم ... قالت: قد عرفت أنه ليس بملك وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان - عليه السلام - إني قادمة إليك بملوك قومي لأنظر في أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم توجهت إليه في اثني عشر ألف رجل من أشراف قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت من حدود مملكته

---

١ - سورة النمل. الآيتان: ٣٨ - ٤٠.

جمع مَنْ عنده من الإنس والجن ممن تحت يده، فقال لهم: ﴿ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ .

أى: قال سليمان مخاطباً مَنْ سخرهم الله - تعالى - لخدمته من الجن والإنس: أيكم يأتينى بالسرير العظيم لهذه الملكة قبل أن تحضر إليَّ هى وقومها منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به؟

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى فلسطين حيث مقر مملكته بلدة القدس - ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض، ومن نعم جليلة، ومن قوة خارقة، حيث سخر له الله - تعالى - من يحضر له عرش تلك الملكة من مكان بعيد في زمن يسير، ولعل كل ذلك يحملها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين .

وقد ردَّ عفريت من الجن على سليمان - عليه السلام - بقوله: أنا آتيك بعرش هذه الملكة، قبل أن تقوم من مجلسك هذا، أو قبل أن تقف من جلوسك، وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك؛ لقادر على ذلك، بحيث لا يثقل حمله عليَّ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شئ .

وكأن سليمان - عليه السلام - قد استبطأ إحضار عرش تلك الملكة فى تلك الفترة التى حددها ذلك المارد القوى الشديد من الجن، فنهض جندى آخر من جنود سليمان، ذكره ووصفه القرآن الكريم

بقوله: ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ .

قال بعض المفسرين : والمراد بالذى عنده علم من الكتاب: آصفُ ابن بـرْخيـا ،وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل، أعطاه الله - تعالى - من لدنه علماً واسعاً، وكان وزيراً لسليمان .

قالوا: وكان هذا الرجل يعرف اسم الله الأعظم، هذا الاسم الذى من دعا الله - تعالى - به أجاب الله له دعاءه . . .

والمعنى: قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى -:يا نبى الله، أنا آتيك بعرش « بلقيس ملكة سبأ » قبل ارتداد أجفانك إذا تحركت للنظر فى شئ، أو قبل أن تغمض عينك وتفتحها . . .

وأذن سليمان لهذا الرجل الصالح بإحضار عرش ملكة سبأ، فدعا الله - تعالى - فأجاب دعاءه، وجاء العرش من بلاد اليمن إلى مقر مملكة سليمان بالقدس بتلك السرعة الفائقة، فلما رآه سليمان لم يغتر ولم يبطر، بل قال: هذا من فضل ربى وعطائه، ومَنْ شكر فإن الله سيزيده من نعمه، ومَنْ جحد نعم الله، فالله غنى عنه وعن الناس أجمعين.

ثم يأتى المشهد الأخير لهذه القصة الزاخرة بالعظات والعبر، فتخبرنا الآيات الكريمة عما فعله سليمان بعرش تلك الملكة،

وما قاله لها بعد قدومها إليه، وما انتهى إليه حالها، فقال - تعالى -:

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[1]

أى: قال سليمان لجنوده بعد أن استقر عنده سرير ملكة سبأ الذى تجلس عليه: غيروا سرير هذه الملكة، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته، وكأن تجعلوا أعلاه أسفله، وافعلوا ذلك لنعرف أتهتدى إلى معرفته بعد هذا التغيير، أم تكون من الذين ليس عندهم الذكاء الكافى لمعرفة حقيقة الشئ بعد تغيير معالمه؟

فالمقصود بتغيير هيئة سريرها: اختبار ذكائها وفطنتها وحسن تصرفها ومدى قوة ملاحظتها.

ثم بين - سبحانه - ما قالته عندما عرض عليها سليمان - عليه السلام - بعد تغيير معالمه فقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[2]

أى: فلما وصلت ملكة سبأ إلى مجلس سليمان قال لها: أهكذا عرشك؟

---

١ - سورة النمل. الآية: ٤١. ٢ - سورة النمل. الآية: ٤٢.

أى: أمثل هذا العرش الذى تشاهدينه الآن، عرشك الذى خلفتيه وراءك فى بلادك؟ ولكن هذه الملكة الحكيمة الذكية هداها تفكيرها السليم إلى أن تقول: هذا العرش الذى غُيِّرت معالمه كأنه عرشى الذى تركته من خلفى فى بلادى، فهى لم تثبت أنه هو، ولم تنف أنه غيره، وإنما تركت الأمر مبنياً على الظن والتشبيه، لكى يناسب الجواب السؤال.

وكأنها استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها وذكائها، فقالت: وأوتينا العلم من قبل تلك الحالة التى شاهدناها بصحة نبوة سليمان ـ عليه السلام ـ وكنا مسلمين طائعين لأمر الله ـ تعالى ـ وقدرته.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل مجيئها سليمان ـ عليه السلام ـ فقال:

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾(١)

أى: ومنع هذه المرأة العاقلة الحكيمة من الدخول فى الإسلام منذ بلوغها سن الرشد، أنها كانت تعيش مع قوم كافرين يعبدون الشمس، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم. فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام.

١ ـ سورة النمل ـ الآية: ٤٣.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ـ عليه السلام ـ لكى تزداد يقيناً بوحدانية الله وقدرته، وبعظم النعم التى منحها الله ـ تعالى ـ لنبيه سليمان، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

والصرح: يطلق على القصر المرتفع الجميل. واللجة: الماء الذى تتحرك أمواجه. والشئ الممرد: الناعم العارى من كل ما يحجبه. والقوارير: جمع قارورة: وهى إناء من الزجاج الصافى النقى.

أى: قال سليمان ـ عليه السلام ـ للملكة سبأ: ادخلى هذا القصر، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة، ظنته ماءً غزيراً كالبحر، لأن ساحته كانت من زجاج تحته ماء، فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها.

فقال لها سليمان: إن هذا القصر ساحته من زجاج صافٍ تحته ماء...

فأدركت بفطنتها قدرة الله ـ تعالى ـ وعظمة ما أعطاه لنبيه سليمان من نعم وخيرات، وقالت: يا رب، إنى ظلمت نفسى بسبب عبادتى لغيرك، وإنى قد أسلمت وجهى طائعة مختارة لعبادتك وحدك مع سليمان، فأنت الله رب العالمين.

---

١ ـ سورة النمل. الآية: ٤٤.

هذا، ومن الدروس التى نتعلمها من هذه القصة: أن ملكة سبأ كانت من النساء اللائى أعطاهن الله - تعالى - فطرةً نقيةً، وعقلاً واعياً، وقلباً سليماً، ونفساً زكيةً، وبصيرةً حكيمةً تضع الأمور فى مواضعها الصحيحة ...

فقد أسست ملكها لقومها على المشورة، وآثرت خلال حكمها لقومها السلام على الحرب، واللين على الشدة، والتواضع على الغرور، مما يدل على حقن دماء أبناء مملكتها، وعلى نشر الأمن والرخاء فى ربوع مملكتها ...

وكان عندها الاستعداد الفطرى لقبول الحق والاستجابة له، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين يعبدون الشمس ...

وعندما التقت بسليمان، وانكشفت لها الحقائق بادرت إلى الدخول فى الدين الحق، وقالت: ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فرضى الله عنها وأرضاها .

٦ ـ زليخا امرأة العزيز

حديث القرآن الكريم في الآيات التي سنذكرها بعد قليل، عن امرأة وصفها القرآن الكريم بأنها امرأة عزيز مصر، في عهد أحد ملوك مصر منذ آلاف السنين، وسماها بعض المفسرين: زُلَيخا أو «راعيل».

وقد عاشت تلك المرأة فترة من الزمان مع يوسف ـ عليه السلام ـ الذى وصفه القرآن الكريم بالصدِّيق، ووصفه الرسول ـ ﷺ ـ بأنه: [الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم].

وقد قص علينا القرآن الكريم أن يوسف ـ عليه السلام ـ حسده إخوته على محبة أبيهم له، وقالوا:

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

وانتهى أمرهم معه أن ألقوا بيوسف في الجُب فانتشله من الجُب جماعة من المسافرين، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

---

١ ـ سورة يوسف. الآية: ٨.

وتبدأ قصة هذه المرأة مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبت أن الذى اشترى يوسف بدراهم معدودة هو زوجها، بدليل قوله - تعالى - :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(١)

ولفظ « شروه » هنا بمعنى : باعوه.

و « البخس » : النقص : بخس فلان فلاناً حقه، إذا نقصه وعابه.

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عَرَضاً من عروض تجارتهم، باعوه فى الأسواق بثمن قليل دراهم معدودة، ذكر بعض المفسرين أنها لا تزيد على عشرين درهماً.

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ : بيان لعدم حرصهم على بقائه معهم، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشئ،

١ - سورة يوسف. الآيات : ٢٠ - ٢٢.

تقول: زهدت فى هذا الشئ، إذا كنت كارهًا له غير مقبل عليه.

أى: وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقائه معهم، ومن الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن، قبل أن يظهر من يطالبهم به.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله الذى اشتراه لامرأته فقال: ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا... ﴾.

والذى اشترى يوسف ـ عليه السلام ـ قال بعض المفسرين: إنه كان كبير وزراء مصر فى ذلك الزمان، وقيل: إنه كان وزيرا، وقيل: إنه كان من كبار حاشية مَلك مصر فى ذلك الوقت...

وقد وصفه القرآن بالعزيز كما سيأتى ذلك فى قوله ـ تعالى:

﴿ ... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ... ﴾(1)

وكما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٌ فِى ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ... ﴾(2)

ولفظ ﴿ مثواه ﴾ مأخوذ من المثوى، بمعنى: مكان الإقامة والاستقرار. يقال: ثوى فلان بمكان كذا، إذا أطال الإقامة به.

---

1 ـ سورة يوسف. الآية: 51.
2 ـ سورة يوسف. الآية: 30.

ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ... وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ... ﴾[1]

أى : وما كنت مقيماً فى أهل مدين .

والمعنى : وقال الرجل الذى يشغل منصباً كبيراً فى مصر فى ذلك الزمان ، قال لامرأته : أحسنى معاملة هذا الغلام الذى اشتريناه ، واجعلى محل إقامته كريماً ، وأنزليه منزلاً حسناً مرضياً ...

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ : بيان لسبب أمر هذا الرجل لامراته بإكرام يوسف ـ عليه السلام ـ

أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وأمارات الأدب وحسن الخلق .

وهذه الجملة الكريمة وهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ تشير إلى أنهما لم يكن لهما أولاد .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانباً من مظاهر فضله وكرمه على يوسف ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ ... وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

---

١ ـ سورة القصص . الآية : ٤٥ .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على وحدانيتنا وقدرتنا ورعايتنا ليوسف، مكنَّا له فى أرض مصر، حتى صار من أهل الأمر والنهى فيها ...

وفعلنا ذلك التمكين له لنعلمه من تأويل الأحاديث، بأن نهبه من صدق اليقين، واستنارة العقل ما يجعله يُدرك معنى الكلام إدراكاً سليماً، ويُفسر الرؤى والأحلام تفسيراً صحيحاً، والله - تعالى - متمم ما قدره وأراده، لا يمنعه من ذلك مانع ولا ينازعه منازع، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق حق العلم، وإنما القلة منهم هم الذين يعلمون ذلك .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها على نبيه يوسف - عليه السلام - فقال : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى قوته فى شبابه، منحناه من لدنَّا ومن فضلنا وإحساننا حكمة وإصابة وسداداً فى القول وفى العمل، ومنحناه كذلك علماً وفقهاً فى الدين، وفهماً سليماً لشئون دنياه ...

ومثل هذا العطاء والجزاء الحسن نعطى ونجازى الذين يحسنون أداء ما يكلفهم خالقهم به من عبادات، ومن أقوال وأفعال، وتلك هى سنة الله - تعالى - التى لا تتخلف ولا تتبدل .

ثم تنتقل سورة يوسف - عليه السلام - إلى الحديث عن تلك المرأة التى كانت مكتملة الأنوثة، والتى حاولت إغراء يوسف للاستجابة لها بشتى المغريات، وحطمت فى سبيل ما تشتهيه كل القيم الشريفة ...

ويصور القرآن كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(١)

فالآية الكريمة تصور ما كان من حال تلك المرأة مع يوسف - عليه السلام - الذى عاش معها فى بيتها لفترة من الزمان اكتمل فيها شبابه وقوته، وكيف أنها نظرت إليه بعين، تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف الإمام الزمخشرى - : « مفاعلة من راد فلان يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى : خادعته عن نفسه، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لغيره عن الشئ الذى لايريد أن يخرجه من يده، وإنما يحتال لكى يغلبه عليه ويأخذه منه، وهو عبارة عن التحايل للاستجابة لها... » .

---

١ - سورة يوسف . الآية : ٢٣ .

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر، المصحوب بالإغراء والتصنع والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل، وكان منه ـ عليه السلام ـ الإباء والامتناع عما تريده منه خوفاً من الله ـ تعالى ـ

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ ... التي هو في بيتها ... ﴾ دون ذكر لاسمها ستراً لها، وابتعاداً عن التشهير بها. وهذا لون من الأدب السامي الذي التزمه القرآن الكريم في أساليبه وتعبيراته، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب في التعبير.

والمقصود ببيتها: مكان سكناها، والإخبار عن المراودة بأنها كانت في بيتها، أدعى لإظهار كمال نزاهة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن كونه في بيتها يغرى بالاستجابة لها، ومع ذلك فقد أعرض عنها، ولم يطاوعها في مرادها.

وعدى فعل المراودة بحرف «عن» قوله ـ تعالى ـ : ﴿ عن نفسه ﴾ لتضمنه معنى المخادعة والمحايلة ...

أى: راودته محاولة مباعدته عن نفسه، بأن يجعلها مطيعة لها، وناسية كل مايخالف ذلك من معاني الشرف والأمانة والوفاء بالعهود والتحلى بما يليق من فضائل ...

ولذا قال بعض العلماء: والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم، لأن النفس هنا كناية عن الاستجابة لمطالبها، وعن تمكنها منه، وعن تسليم نفسه إليها ليكون طوع إرادتها . . .

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وغلقت الأبواب ﴾: بيان لمرحلة أخرى من مراحل ما صممت عليه تلك المرأة . . .

أى: وغلقت أبواب بيتها الذى تبيت فيه باباً فباباً، مما يشير إلى ثرائها وترفها وامتلاكها لكل وسائل المتعة ورغد الحياة .

والمقصود : أنها غلّقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقاً شديداً محكماً، كما يشعر بذلك التضعيف فى «غلقت» زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له: ﴿ هيت لك ﴾.

ولفظ « هيت » اسم فعل أمر، بمعنى: أقبل وأسرع وهَلُمَّ، فهى كلمة حض وحث على الفعل.

أى: وقالت تلك المرأة ليوسف ـ عليه السلام ـ بعد أن غلقت أبواب بيت سكناها: أنا مهيأة لك . . .

وهذه الدعوة السافرة منها له: تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها، وأنها قد خرجت عن المألوف

من بنات جنسها، فقد جرت العادة أن تكون الأنثى مطلوبة لاطالبة...

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ... قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾ : بيان لما رد به يوسف عليها، بعد أن تجاوزت في إثارته كل حد.

ولفظ « معاذ » : مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة، وهو منصوب بفعل محذوف.

أى: قال يوسف في الرد عليها: أعوذ بالله معاذًا مما تطلبينه منى، وأعتصم به اعتصامًا مما تُحاولينه معى، فإن ما تطلبينه وتلحين في طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف، ولا يفعله إلا من خبث منبته، واستحوذ عليه الشيطان...

وقوله: ﴿ ... إنه ربى أحسن مثواى ... ﴾ : تعليل لسبب نفوره مما دعته إليه، واستعاذ بالله منه.

والضمير في « إنه » يجوز أن يعود إلى الله ـ عز وجل ـ فيكون المعنى: قال يوسف في الرد عليها: معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر، بعد أن أكرمنى الله ـ تعالى ـ بما أكرمنى به من النجاة من الجُب ومن كيد إخوتى لى، ومن رعايتى في كل مظاهر حياتى، وإذا كان خالقى قد حبانى بكل هذه النعم فكيف أرتكب مايغضبه؟

ويجوز أن يعود الضمير في « إنه » إلى زوجها، فيكون المعنى: إن زوجك وسيدي الذي اشتراني بماله، وقال لك: ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ لا يصح لي أن أخونه في عرضه وفي شرفه ...

وفي هذه الجملة الكريمة: تذكير لها بحقوق الله وبحقوق زوجها، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من فاحشة، لأن ارتكاب هذه الفاحشة يؤدي إلى غضب الله وغضب زوجها.

وقوله - سبحانه -: ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر لمنعها عما تريده منه.

أي: إن كل من ارتكب ما نهى الله عنه من فواحش، تكون عاقبته الخسران وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة.

والمتدبر في هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز، والمتمثلة في المراودة، وفي تغليق الأبواب، وفي قولها: ﴿ هيت لك ﴾.

قد قابل هذه الدواعي الثلاث للغواية، بدواعي العفاف الثلاث التي رد بها يوسف - عليه السلام - والمتمثلة في قوله - تعالى -: ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾.

وهكذا أثبت القرآن الكريم أن الاعتصام بالعفاف والطهارة

والشرف والأمانة، كان سلاح يوسف ـ عليه السلام ـ في تلك المعركة العنيفة بين نداء الخوف من الله ـ تعالى ـ والاعتصام بالشرف والمروءة، وبين نداء الشهوات والنزوات وخطوات الشيطان !!

ولكن هذه المعركة العنيفة بين نداء الشهوات والنزوات وخطوات الشيطان التي تقودها امرأة العزيز، وبين نداء العفاف والطهر والخوف من الله الذي يقوده يوسف ـ عليه السلام ـ لم ينته عند هذا الحد، بل انتقل إلى معركة أعنف وصلت إلى مرحلة المهاجمة التي عبر عنها القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(١)

ولفظ « الهمّ » معناه المقاربة من الفعل من غير دخول فيه. تقول: هممت بفعل هذا الشيء، إذا اتجهت نفسك نحوه دون أن تفعله .

ولذا قال العلماء: الهمّ نوعان: همٌّ ثابت معه العزم وعقد النية على التنفيذ، وهو مذموم، ومؤاخذ عليه صاحبه .

وهمّ بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم أو تصميم أو عقد نية على التنفيذ، وهذا لا يؤاخذ عليه صاحبه.

---

١ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٢٤ .

وذلك لأن ورود النواهي في الصدور، وتصورها في الأذهان، لامؤاخذة عليها مادامت لا وجود لها في الأعيان .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : [إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به، أو تعمل به] .

وقد أجمع العلماء على أن همَّ امرأة العزيز بيوسف كان همًّا بمعصية، وكان مقروناً بالعزم والجزم والقصد، بدليل : المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها له : ﴿ هيت لك ﴾ .

كما أجمعوا على أن هَمَّ يوسف - عليه السلام - كان مجرد خاطرة قلب خطرت له بمقتضى طبيعته البشرية، دون جزم أو عزم أو عقد نية .

وهذا اللون من الهمِّ لا يدخل تحت التكليف، ولا يخل بمقام النبوة، ومثل ذلك كمثل الصائم يرى الماء البارد في اليوم الشديد الحرارة، فتميل نفسه إليه، إلا أن خوفه من الله، ومحافظته على صيامه، وقوة إيمانه، كل ذلك يمنعه من الشرب من هذا الماء النافع . . .

والمقصود ببرهان ربه في قوله - تعالى - : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ : ما غرسه الله - تعالى - في قلب يوسف - عليه السلام - من الخوف من خالقه، ومن اعتصامه بالعفاف والفضائل، ومن نهي لنفسه عن الهوى، ومن العلم المصحوب بالعمل بأن هذا الفعل الذي دعت إليه امرأة العزيز فعل قبيح لا يليق بالمؤمن الصادق .

والمعنى: ولقد قصدت امرأة العزيز من يوسف - عليه السلام - بعد أن غلّقت الأبواب وقالت له أنا مهيأة لك، قصدت منه الاستجابة لشهواتها، ووصل بها الحال أن حاولت الاقتراب منه ومخالطته...

وأمام كل هذه المغريات، وبمقتضى ما وهب الله - تعالى - ليوسف من رجولة ومن شباب وفتوة، حدثته نفسه حديث خطرات أن يستجيب لها، ولكن خوفه من الله - تعالى - جعله في أسرع وقت يقطع هذه الخطرات، وينصرف بعيداً عن هذه المرأة التي تغلّب عليها هواها، ويفر من أمام وجهها طالباً النجاة مما تريده منه ...

وقوله - عز وجل -: ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾: بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به، ورعايته له.

والصَّرف: نقل الشئ من مكان إلى مكان، والمراد به هنا: الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه.

والمعنى: أريناه مثل هذه الإراءة، أو ثبتناه تثبيتاً مثل هذا التثبيت لنعصمه ولنحفظه ولنصونه عن الوقوع في السوء والفحشاء، لأن يوسف - عليه السلام - من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتنا، وعصمناهم من كل ما لا يليق بأمثاله من المصطفين الأخيار.

وهذا التفسير الذى اخترناه لهذه الآية الكريمة، قد استخلصناه من أقوال بعض المفسرين السابقين والمحدثين.

فمن المفسرين القدامى الذين جنحوا إلى هذا الرأى : الإمام الزمخشرى ـ رحمه الله ـ فقد قال ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ولقد همّت به ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ وهمَّ بها ﴾ أى: وهمّ بمخالطتها .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ جوابه محذوف والتقدير : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف هذا الجواب ، لأن قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وهمَ بها ﴾ يدل عليه .

وذلك كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله: أى لولا أنى خفت الله لقتلته .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : فإن قُلتَ : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية ؟!

قلتُ : المراد أن نفس يوسف ـ عليه السلام ـ مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلاً يشبه الهمّ به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة ؛ لما مدحه بأنه من عباده المخلصين . . .

ومن المفسرين المحدثين الذين مالوا ـ أيضا ـ إلى هذا التفسير : الإمام الآلوسى ـ رحمه الله ـ فقد قال ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ولقد همت به ﴾ أى : بمخالطته .

والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزماً جازماً ، لايصرفها عنها صارف بعد أن باشرت مباديها . . .

والتأكيد (باللام وقد) : لدفع ما قد يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وهمَّ بها ﴾ أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية . . . ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصداً اختيارياً ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به . . .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .

والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين .

هذا ، وقد ذكر المفسرون أقوالاً أخرى كثيرة فى تفسير هذه الآية الكريمة ، من هذه الأقوال ما هو مقبول ، ومنها ما هو غير مقبول ، ونكتفى هنا بما سبق اختياره لأننا نرجح أنه أنسب الأقوال .

وتنتقل السورة الكريمة إلى فعل آخر من أفعال تلك المرأة التي كانت مصممة على الانقياد لهواها، وعلى إكراه يوسف - عليه السلام - على الخضوع والاستسلام لما تريده منه، ويصور القرآن ذلك في قوله - سبحانه -:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١)

وقوله - تعالى -: ﴿ واستبقا الباب ﴾: من الاستباق وهو افتعال من السبق، بمعنى أن كل واحد منهما حاول أن يكون هو السابق نحو الباب ...

ووجه تسابقهما أن يوسف أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروباً من الفاحشة التي طلبتها منه، وهي أسرعت من خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه.

وأفرد - سبحانه - الباب هنا، وجمعه فيما تقدم حيث قال: ﴿ وغلقت الأبواب ﴾: لأن المراد بالباب هنا باب الدار الخارجي، أما المراد بالأبواب فيما سبق، فهي أبواب حجراتها الداخلية.

والمعنى: وتسابقا يوسف - عليه السلام - وامرأة العزيز في الوصول

---

١ - سورة يوسف . الآية : ٢٥ .

إلى الباب الخارجى ليخرج منه يوسف، وأسرعت خلفه لتمنعه من ذلك، وجذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فقطعت قميصه من جهة ظهره . . .

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾ أى: وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا: والتعبير عن الزوج بالسيد، كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت البعيد، فعبر عنه القرآن بذلك، حكاية لدقائق ما كان متبعاً فى التاريخ القديم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ : بيان لما قالته تلك المرأة الماكرة لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تُسرع وراء يوسف ـ عليه السلام ـ

أى: قالت تلك المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب وهى تتصنع الغضب: ليس من جزاء لمن أراد بأهلك ـ تقصد ذاتها ـ سوءاً ومنكراً، إلا أن يسجن عقوبة له، أو أن يُعذب عذاباً أليماً .

وهذا القول منها يدل على اكتمال قدرة تلك المرأة على المكر والدهاء، لأنها قد حاولت إيهام زوجها بأن يوسف ـ عليه السلام ـ قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه، ولكن دون تصريح بهذا العدوان ـ شأن العاشق مع معشوقه ـ حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه ببيعه أو بطرده من بيته . . .

ولأنها في الوقت نفسه أرادت إفهام يوسف بأن أمرها لا بيد زوجها، وأنها هي الآمرة الناهية، فعليه أن يخضع لما تريده منه، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم.

وهنا نجد أن يوسف - عليه السلام - لا يجد مفراً من الرد على هذا الاتهام الباطل فيقول - كما قصَّ القرآن عنه - :

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1]

أى: قال يوسف - عليه السلام - مُدافعاً عن نفسه: إنى ما أردت بها سوءاً، وإنما هي التي بالغت في ترغيبي وإغرائي بارتكاب ما لا يليق معها.

ثم انبرى شاهد من أهل هذه المرأة ليقول كلمة الحق، وهذا الشاهد قد يكون قريباً لها من الرجال أو من الصبيان، فقال: إن كان قميص يوسف - عليه السلام - قطع من جهة الأمام تكون هي الصادقة في أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنها دفعته من أمامها وهو يريد الاعتداء عليها، ويكون هو من الكاذبين في قوله: ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

---

١ - سورة يوسف. الآيتان: ٢٦، ٢٧ .

أما إذا كان قميص يوسف - عليه السلام - قد قطع من الخلف، فتكون هي قد كذبت في دعواها على أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها، فتعقبته من خلفه حتى الباب وأمسكت به من الخلف، ويكون هو من الصادقين في قوله : إنها راودته عن نفسه .

وهكذا قيض الله - تعالى - في تلك اللحظات الحرجة من ينطق بكلمة الحق، ويشهد الشهادة العدل .

وسمَّى الله - تعالى - ذلك الحَكَم بينهما شاهداً، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق في قضية التبس فيها الأمر على زوج هذه المرأة الجريئة في مكرها .

ثم بين - سبحانه - ما قاله زوج تلك المرأة بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافاً تاماً فقال :

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِـِٔينَ ﴾[1]

أي : فلما رأى زوج تلك المرأة قميص يوسف وقد قطع من الخلف، ما كان منه إلا أن وجَّه كلامه إلى امرأته قائلاً لها :

---

١ - سورة يوسف . الآيتان : ٢٨، ٢٩ .

أيتها المرأة إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برئ منه، هو نوع من الكيد والمكر والخديعة، وإن مكركن وكيدكن وخديعتكن ـ أيتها النساء ـ في هذا المجال عظيم في بابه، لأن كثيراً من الرجال لايعرفون مقاصده وأهدافه ومراميه.

وهكذا واجه هذا الزوج ـ صاحب المنصب الكبير ـ خيانة امرأته له بهذا الأسلوب الناعم الرقيق، بأن نسب كيدها ومكرها ليس إليها وحدها، وإنما إلى جنس النساء جميعاً، حيث قال: ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ .

ثم وجَّه الزوج الكبير ـ كلامه إلى يوسف ـ عليه السلام ـ فقال: يا يوسف، أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه، ولا تتحدث به خوفاً من الفضيحة، وحفاظاً على كرامتي وكرامتها.

ثم وجَّه الزوج كلامه مرة أخرى إلى امرأته فقال: أما أنت ـ أيتها المرأة ـ فاستغفرى لذنبك بسبب قصدك الفعل السئ مع يوسف، وتوبى توبة صادقة، لأن ما حدث منك مع يوسف جعلك من جملة القوم الخاطئين المتعمدين لارتكاب الذنوب والخطايا التى لا تليق بالعفيفات الطاهرات من النساء .

ثم تمضى السورة الكريمة فتحدثنا عن لون آخر من ألوان مكر امرأة العزيز ودهائها، وتصميمها على أن تصل من يوسف - عليه السلام - إلى ما تريده وتشتهيه، بعد أن بلغها أن مافعلته معه قد شاع بين عدد من النساء اللائى من عادتهن أن يتحدثن فى مثل هذه الأمور فى مجالسهن الخاصة، فقال - تعالى -:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

ولفظ «النسوة»: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومفرده من حيث المعنى: امرأة.

والمراد بالمدينة: مدينة مصر التى كانت تعيش فيها تلك المرأة مع زوجها - صاحب المنصب الكبير فى المدينة -

أى: وقال نسوة من نساء مصر فى ذلك الزمان البعيد - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز، صاحبة المكانة المرموقة فى قومها، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها، وفى خروجها عن طريق الفضيلة، أنها تطلب من فتاها الذى هو بمنزلة خادمها ما لا يليق من الأفعال، وتتخذ لبلوغ غرضها وإشباع هواها شتى الوسائل والحيل.

---

١ - سورة يوسف. الآية: ٣٠.

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم، لأنه لا يتعلق بذلك غرض مهم، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم إنما هو بيان أن ما حدث من تلك المرأة التى هى من علية القوم قد صار لا يخفى أمره لا سيما فى الأوساط التى تتشابه معها فى الترف ورغد العيش . . .

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ قد شغفها حبا ﴾ تصوير بديع لحالها معه . والمقصود منه : تكرير لومها، وتأكيد انقيادها لهواها .

ولفظ «شغفها» : مأخوذ من الشَّغَاف ـ بتشديد الشين مع الفتح ـ وهو غلاف القلب، أو سويداؤه وحبَّتُه . . .

والمراد : أن حب هذه المرأة ليوسف ـ عليه السلام ـ قد شق شغاف قلبها وغلافه، وتمكن منه تمكناً لا مزيد عليه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ مقرر ومؤكد لمضمون ما قبله من لوم امرأة العزيز، ومن تحقير سلوكها، والمراد بالضلال هنا : مخالفة طريق الصواب .

والمعنى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا، وصادق علمنا، فى خطأ عظيم واضح، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء، لأنها وهى المرأة المرموقة تراود من هو بمنزلة خادمها عن نفسه .

والتعبير بأسلوب « إنا لنراها » للإشعار بأنهن حكمن عليها بالضلال ليس عن جهل، وإنما هو عن علم وروية، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال الواضح الصادر عنها .

ثم بين القرآن الكريم كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1]

والمعنى: فحين سمعت امرأة العزيز بما قالته تلك النسوة فى حقها من سوء ومن أنها فى ابتعاد عن طريق العفاف، ما كان منها إلا أن أرسلت إليهن للحضور إليها فى دارها لتناول الطعام ...

﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ : وهيأت لهن فى مجلس طعامها ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، وما يشبه ذلك.

﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾: ليقطعن بتلك السكاكين ما يأكلن من لحوم وفواكه ...

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الحضارة المادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأن الترف فى القصور كان عظيماً، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصور الترف والرغد والحضارة المادية التى كانت تعيشها مصر فى بيوت طائفة من سكانها ...

---

١ ـ سورة يوسف. الآية: ٣١.

بعد كل ذلك نجد تلك المرأة الجريئة الماكرة تقول ليوسف ـ عليه السلام ـ بلغة الآمر : ﴿ اخرج عليهن ﴾ وادخل عليهن، وهن على تلك الحالة الناعمة من الأكل والاتكاء وتقطيع ما يحتاج إلى تقطيع من الطعام . . .

ولا شك أنها تقصد من وراء ذلك إطلاعهن على هيئة يوسف حتى يعذرنها فى حبها له، وقد كان من خروج يوسف عليهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه أثره الشديد فى نفوسهن .

وهذا ما وضحه القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ :
﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

أى : فحين خرج يوسف على تلك النسوة وهن على تلك الحالة من السرور والمرح والتفكه، ورأين هيئته الجميلة، وحسن شمائله، أكبرنه وأعظمنه، ودهشن لطلعته، وجرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن، دون أن يشعرن بذلك . . .

وقلن بألسنتهن وقلوبهن وعواطفهن : تنزه الله ـ تعالى ـ تنزيهاً كبيراً عن صفات العجز، ونتعجب تعجباً شديداً من قدرته ـ سبحانه ـ على خَلْق هذا الجمال البديع، وما هذا الذى نراه أمامنا بشراً كسائر البشر، لتفوقه فى الحسن عنهم، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين، تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب .

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه من هو مفرط فى الجمال والعفاف بالمَلك، وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها، اللاتى أنكرن عليها حبها ليوسف، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى، ودون استحياء أو تلميح، ما ذكره - سبحانه - فى قوله :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ ﴾[1]

أى : قالت تلك المرأة لتلك النسوة اللاتى دعتهن للطعام، ودُهشن عندما خرج عليهن يوسف بأمرها وتدبيرها ومكرها ...

قالت لهن على سبيل التشفى والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه : إن كان الأمر كما قلتن، فذلك هو يوسف، المَلك الكريم الذى لمتننى فى حبه، وقلتن فى شأنى لافتتانى به، فالآن بعد رؤيتكن له، وبعد تقطيعكن لأيديكن ذهولاً لطلعته، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه .

---

١ - سورة يوسف . الآية : ٣٢ .

ثم جاهرت أمامهن بأنها قد أغرته بأن يستجيب لهواها فلم يستجب ، فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .

أى : ووالله لقد حاولت معه بمختلف الوسائل أن يُطوِّع نفسه لى ، فأبى وامتنع عن تلبيتى لما أطلبه منه بكل ثبات وعناد ، وبالغ فى عصمته لنفسه وفى عدم الاستجابة لمطالبى . . .

ثم قالت لهن بعد ذلك بكل تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ووالله لئن لم يفعل ما آمره به ـ وأنا سيدته الآمرة الناهية له ـ لألقين به فى السجن عقوبة له ، وسأجعله بعد كل ذلك من الصاغرين الأذلاء الذين هم محل إهانتى وقهرى . . .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها بنفسها ، وعلى أن زوجها فى قبضة يدها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمراً ، ولا أن يخالف لها قراراً تتخذه فى شأن يوسف ـ عليه السلام ـ

ووصل إلى سمع يوسف ـ عليه السلام ـ هذا التهديد السافر من تلك المرأة له ، فماذا فعل ؟

لقد لجأ إلى خالقه ـ عز وجل ـ يبتهل إليه بالدعاء ويلتمس منه العون لإنجائه مما تريده منه تلك المرأة المتسلطة .

ويقص علينا القرآن ذلك فيقول:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[1]

أى: قال يوسف - عليه السلام - متضرعاً إلى ربه - عز وجل - : يارب، السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها، أحبُّ إليَّ وآثر عندى مما يدعوننى إليه من أفعال لا ترضيك...

وإني - ياربى - إذا لم تصرف عنى كيدهنَّ ومكرهنَّ، ربما أطاوعهن على ما يردنه منى، وأكن بسبب ذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لشهواتهم ولأهوائهم...

وقال يوسف - عليه السلام -: ﴿ السجن أحب إليّ مما يدعوننى إليه ﴾ ولم يقل أحبّ إليّ مما تدعوننى تلك المرأة إليه، لأنهن جميعاً كن مشتركات بطريق مباشر أو غير مباشر، فى دعوته إلى اقتراف ما لا يليق.

---

١ - سورة يوسف. الآيات: ٣٣ - ٣٥.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن . . . ﴾ إعتراف من يوسف ـ عليه السلام ـ بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء، إن لم يكن معه عون من الله ـ تعالى ـ وعنايته ورعايته . . .

ولفظ « أصْبُ » من الصَّبوة، وهى : الميل إلى الهوى، يقال : صَبَا فلان يصبو صَبْواً، إذا مال إلى الشهوات واتبع طريق الشر . ومنه قولهم : هبَّت ريحُ الصَّبا، أى : الرياح التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها، واعتدال هوائها . . .

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ : بيان لقبول الله ـ تعالى ـ لدعاء يوسف ـ عليه السلام ـ وتحقيق مطالبه .

والمعنى : فاستجاب الله ـ تعالى ـ ليوسف دعاءه وضراعته، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن، بأن أدخل اليأس فى قلوبهن من الطمع فى استجابته لهن، وبأن زاده ثباتاً على ثباته، وقوةً على قوته، فلم ينخدع بمكرهن، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن . . .

إنه ـ سبحانه ـ هو « السميع » لدعاء الداعين، والمجيب لضراعة المخلصين، « العليم » بأحوال النفوس، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

وقال ـ سبحانه ـ : « فاستجاب » بفاء التعقيب، للإشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه، قد أجاب دعاء عبده يوسف ـ عليه السلام ـ دون تأخير أو إبطاء .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: « وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ : بيان لتكريم الله ـ تعالى ـ ليوسف عليه السلام ـ وذلك لأنه ـ سبحانه ـ عصمه عصمة عظيمة، وحماه من كيدهن، وجعله يختار السجن نفورا من ارتكاب الفاحشة، وهذا في غاية مقامات الكمال، لأنه مع شبابه وجماله وكماله، تدعوه سيدته ـ وهي امرأة عزيز مصر ـ وهي في غاية الجمال والمال والرياسة، فيمتنع عما تريده منه، ويختار السجن خوفا من الله ـ تعالى ـ ورجاء في ثوابه .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ : بيان لما فعله زوج تلك المرأة وحاشيته مع يوسف ـ عليه السلام ـ بعد أن ثبتت براءته .

أى: ثم ظهر لزوج تلك المرأة وحاشيته من بعد أن رأوا وشاهدوا ما يدل على براءة يوسف وطهارته، أن يدخلوه السجن إلى أجل غير مسمى، وأن يغيروا رأيهم في شأنه .

ولا شك أن هذا القرار من عزيز مصر وحاشيته بسجن يوسف، كان بتأثير من تلك المرأة المتسلطة زوجة العزيز .

وقد عبر عن ذلك صاحب الكشاف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية، فقال: « وقوله - تعالى -: ﴿ ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات... ﴾: وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب، وكان مطواعًا لها، وجملاً ذلولاً زمامُه في يدها ... حتى أنساه ذلك ما عاين من الشواهد على براءة يوسف، وعمل برأيها في سجنه ... » .

وبعد أن ذكرت سورة يوسف فيما يقرب من خمس عشرة آية، ماحدث ليوسف في السجن، من دعوته لمن معه في السجن إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ومن تفسيره لرؤيا الملك تفسيرًا حكيمًا أنقذ مصر من فقر سبع سنوات، ومن طلب ملك مصر إحضار يوسف من السجن ليكافئه على التفسير الصحيح لرؤياه، وامتناع يوسف عن الاستجابة لدعوة الملك، حتى يُحقق في سبب الإلقاء به في السجن ظلمًا وعدوانًا لمدة طويلة، وحتى يتحقق الملك من براءة يوسف - عليه السلام -

بعد كل ذلك يسوق القرآن الكريم ختام قصة امرأة العزيز مع يوسف - عليه السلام - وكيف أنها اعترفت بخطئها، وشهدت ببراءته وعفافه وطهارته ...

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ
فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ
إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن
سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وقال الملك ائتونى به ... ﴾ : حكاية لما طلبه مَلك مصر فى ذلك الزمان من معاونيه فى شأن يوسف ـ عليه السلام ـ

وفى الكلام حذف يفهم من المقام، والتقدير : وقال المَلك بعد أن سمع من خادمه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا : أخرجوا يوسف من السجن، وأحضروه إلىّ لأراه وأسمع منه، وأستفيد من علمه ...

١ ـ سورة يوسف . الآية : ٥٠ ـ ٥٣ .

« وهذا يدل - كما يقول الإمام الفخر الرازى - على فضيلة العلم فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سبباً لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الأخروية » .

فلما جاء رسول مَلِك مصر إلى يوسف ليخبره بأن المَلك يُريد لقاءه، قال له يوسف بعزة وأناة : ارجع - أيها الرجل - إلى سيدك الملك ﴿ فاسأله ﴾ قبل خروجى من السجن وذهابى إليه : ﴿ ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ أى: ما حال هؤلاء النسوة اللائى جرحن أيديهن وخدشنها وهُنَّ يأكلن الطعام فى ضيافة امرأة العزيز، وما حقيقة أمرهن معى، لكى تظهر الحقيقة للجميع، وتتضح براءتى، إن ربى عليم بصنيعهن وأفعالهن، لا يخفى عليه شئ من ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى المَلك إلا بعد التحقيق فى قضيته، يدل دلالة واضحة على صبره، وعلى سمو نفسه، وعلو همته .

ولقد مدحه الرسول - ﷺ - وهو سيد المتواضعين - مدحاً عظيماً، ومن ذلك قوله - ﷺ - : [لو لبثتُ فى السجن ما لبث يوسف، لأجبت الداعى] .

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه... ﴾ : حكاية لما فعله المَلك بعد أن بلَّغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفي الكلام حذف يُفهم من السياق، والتقدير: وبعد أن رجع رسول المَلك إليه، وأخبره بما قاله يوسف، استجاب الملك إلى ما طلبه يوسف منه، فأحضر النسوة اللائى جرحن أيديهن، وقال لهن: ما الأمر الهام الذى حملكن في الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه؟ وهل وجدتن فيه ميلاً إلى لاستجابة لكُنَّ ؟

وأمام هذه المواجهة التي واجههن بها المَلك، لم يملكن الإنكار، بل قلن جميعاً بلسان واحد: ﴿ حاش لله ﴾ أى: معاذ الله ﴿ ماعلمنا عليه من سوء ﴾ قط، وإنما الذى علمناه ورأيناه من يوسف ـ عليه السلام ـ هو الاستعصام والعفاف والطهارة من كل سوء .

وهنا ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ ويبدو أنها كانت حاضرة معهن عند الملك: ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى: الآن ظهر الحق وانكشف انكشافاً تاماً بعد أن كان خافياً ...

ثم أضافت إلى ذلك قولها: ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

أى : أنا التى طلبتُ منه ما طلبت ، وإن يوسف لمن الصادقين فى قوله : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تَثْبُت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها المَلك ، وتنطق بها امرأة العزيز والنسوة اللاتى قطعن أيديهن .

ورحم الله الإمام الزمخشرى - صاحب الكشاف - فقد قال : «ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشئ مما قذفنه به لأنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء - » .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ .

والمعنى : ذلك الذى قُلتُهُ واعترفتُ به على نفسى من أنى أنا التى راودته عن نفسه ، إنما قُلتُهُ ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيابه عنى ، ولم أقل فيه شيئًا يسوءه بعد أن فارقنى ، وبعد أن لبث فى السجن بعيداً عنى بضع سنين ، وإنما أنا التى أُقرر أمام المَلك وحاشيته بأنه من الصادقين . . .

وإنما قررت ذلك واعترفت به ، لأن الله - تعالى - لا ينفذ كيد الخائنين ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان .

لذا فأنا التزمت الأمانة فى الحديث عنه، وابتعدت عن الخيانة، لأن الله لا يرضاها ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التى شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها، قد عللت شهادتها هذه بعلّتين :

إحداهما : كراهتها أن تخونه فى غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو فى السجن .

وثانيتهما : علمها بأن الله ـ تعالى ـ لا يهدى كيد الخائنين ولا يسدده، وإنما يبطله ويزهقه .

ثم أضافت إلى كل ذلك ما قصه القرآن عنها وهو قولها : ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ .

أى : وقالت امرأة العزيز ـ أيضاً ـ ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين، وبأنى لم أخنه بالغيب، إلا أنى مع كل ذلك لا أُبرئ نفسى ولا أُنزهها عن الميل إلى الهوى، وعن محاولة وصفه بما هو برئ منه، فأنا التى قلت لزوجى فى حالة دهشتى وانفعالى الشديد : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

وما حملنى على هذا القول سوى هواى ونفسى، وإن النفس البشرية لهى كثيراً ما تأمر صاحبها بالسوء، إلا النفس التى رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف كنفس يوسف ـ عليه السلام ـ

إن ربى كثير الغفران، وكثير الرحمة، لمن يشاء أن يغفر له وأن يرحمه.

والذى يتدبر ويتأمل هذا الكلام الذى قصه القرآن الكريم عن امرأة العزيز، يراه زاخراً بالصراحة التى ليس بعدها صراحة، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف - عليه السلام - الذى خاف مقام ربه ونهى نفسه عن الهوى، رغم الإغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب منها له.

ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذه الاعترافات ما قالتها امرأة العزيز إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان - التي آمن بها يوسف - عليه السلام - فى قلبها، وبعد أن رأت فيه إنساناً يختلف فى استعصامه بالعفاف وبطهارة النفس وبمكارم الأخلاق، عن غيره من الناس الذين عرفتهم ورأتهم.

هذا، ومن العبر والعظات والأحكام والآداب التى نتعلمها من هذه القصة التى اشتملت عليها هذه الآيات الكريمة:

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء بطريقة تنقصها الآداب القويمة والالتزام بالأحكام الشرعية السليمة، هذا الاختلاط كثيراً ما يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله - تعالى - عنه ...

وذلك لأن ميـل الرجل إلى المرأة، وميـل المرأة إلى الرجل أمـر طبيعي، وما بالذات لا يتغير : فالرجل رجل، والمرأة امرأة في كل زمان ومكان .

ووجود يوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز تحت سقف واحد في سن كانت هي فيه مكتملة الأنوثة، وكان هو فيها فتى شاباً جميلاً مكتمل الرجولة، أدى إلى فتنتها به، وإلى أن تقول له في نهاية الأمر بعد إغراءات متنوعة منها قولها : ﴿ هيت لك ﴾ أي : أنا مهيأة لطاعة أمرك .

ولا شك أن على رأس الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول العجيب، وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريماً قاطعاً الخلوة بالأجنبية، سداً للذرائع، وإغلاقاً لباب الوقوع في الفتن .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في ذلك، ما جاء في الصحيحين عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : [إياكم والدخول على النساء] فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحَمْوَ يا رسول الله ؟ فقال ـ ﷺ ـ : [الحَمْوُ الموت] .

والحمو : هو قريب الزوج : كأخيه وابن عمه، فقد يكثر أحدهما من الدخول على زوجة قريبة فيؤدي ذلك إلى ما لا يليق، فيترتب على ذلك أن يقتل أحدهما الآخر .

ومن القصص المشهورة فى كتب الأدب : أن امرأة ـ ذات شهرة فى قومها ـ انحرفت عن طريق العفاف ، فسُئلت : كيف يكون منك ذلك وأنت سيدة قومك ؟

فقالت : « قرب الوِسَاد وطولُ السِّواد » والوساد معروف : وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه . والسِّواد ـ بكسر السين مع التشديد ـ مصدر ساود فلان فلاناً إذا أسر إليه بالحديث .

فكأن هذه المرأة تقول : حملنى على ارتكاب الفاحشة ، قربى ممن أُحبه ، وكثرة حديثى معه سراً .

---

٢ ـ أن من الواجب على الإنسان العاقل سواء أكان رجلاً أم امرأة ، أنه إذا ما دُعى إلى قول أو فعل لا يليق ـ لأنه معصية لله ـ تعالى ـ أن يعتصم بالفضائل ، وأن يتغلب على هواه ، وأن يُذكِّر من يغريه بارتكاب ما نهى الله عنه بسوء عاقبة الوقوع فى المنكر ، كما قال يوسف لامرأة العزيز : ﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾ .

---

٣ ـ أن النفوس البشرية فى كل زمان ومكان ، معرضة للوقوع فى الخطأ والزلل ـ إلا من عصم الله ـ

وهذه النفوس منها : ما يستمر على انغماسه فى الخطأ والزلل وارتكاب ما نهى الله عنه دون توبة أو ندم إلى نهاية حياته ، وهذا اللون من الناس عاقبته الخسران ...

ومنها: ما يقع في الخطأ والزلل ومطاوعة هواه وشهواته لفترات من الزمان، ثم يفيق من سكرته، ويثوب إلى رشده، وتدركه رحمة الله - تعالى - فيتوب توبة صادقة ...

ولعل امرأة العزيز كانت من هذا النوع الثاني، لقد راودت يوسف - عليه السلام - عن نفسه، ورغّبتهُ بكل الوسائل في ارتكاب ما نهى الله عنه معها، ورهّبتهُ من مخالفة أمرها، وحرضت على الإلقاء به في السجن لبضع سنين ظُلماً وعدواناً ...

إلا أنها في النهاية يبدو - والله أعلم - أنها ندمت وتابت واعترفت بخطئها، وقالت: ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ .

والله - عز وجل - هو القائل:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١)

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً منهم .

---

١ - سورة الفرقان . الآية : ٧٠ .

٧ ـ خولة بنت ثعلبة

حديث القرآن الكريم فى الآيات التى سنذكرها بعد قليل ، عن امرأة نقية طاهرة ، حريصة على الالتزام التام بالأحكام الشرعية التى جاء بها النبى ـ ﷺ ـ من عند ربه .

وقد جادلت النبى ـ ﷺ ـ وحاورته فى أمور حدثت بينها وبين زوجها ، فنزلت آيات كريمة تبين الحكم الحق فيما حدث بينها وبين زوجها .

وهذه الآيات هى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع
تحاوركما إن الله سميع بصير ۝ الذين يظاهرون منكم من نسائهم
ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من
القول وزورا وإن الله لعفو غفور ۝ والذين يظاهرون من نسائهم
ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله
بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن
يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله
ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ (١)

---

١ ـ سورة المجادلة . الآيات : ١ ـ ٤ .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات، روايات منها: ما جاء في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن يوسف بن عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنهما ـ عن السيدة خولة بنت ثعلبة، قالت: فيَّ والله، وفي ـ زوجي ـ أوس بن الصامت، أنزل الله صدر سورة المجادلة .

قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خُلقُه .

قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشئ فغضب، فقال: أنت عليَّ كظَهْرِ أُمِّي .

قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم رجع، فإذا هو يريدني عن نفسي، فقالت له: كلا والذي نفس «خولة» بيده لا تصل إليَّ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه .

قالت: فواثبني، فامتنعت عنه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فأبعدته عني .

قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابًا، فخرجت حتى جئت رسول الله ـ ﷺ ـ فجلست بين يديه، فذكرت له ـ ﷺ ـ ما لقيت من زوجي، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خُلق زوجي .

قالت: فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: [يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه] .

قالت: فو الله، ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن، فتغشى

رسول الله - ﷺ - ما كان يتغشاه عند نزول الوحى، ثم سُرِّى عنه، فقال لى رسول الله - ﷺ - : [يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفى زوجك قرآناً] ثم قرأ علىَّ هذه الآيات .

وفى رواية : أنها أتت النبى - ﷺ - فقالت له : يا رسول الله، إن زوجى « أوْسًا » تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىَّ، فلما تقدمت سنى، ونثرتُ بطنى، جعلنى عليه كأمه، وتركنى إلى غير أحد، فإن كانت لى رخصة يا رسول الله، فحدثنى بها؟

فقال لها - ﷺ - : [ما أُمِرْتُ بشئ فى شأنك حتى الآن] .

وفى رواية أنه قال لها : [ما أراك إلا قد حَرُمْتِ عليه] .

فقالت : يا رسول الله، إنه ما ذكر طلاقاً، وأخذت تجادل النبى - ﷺ - ثم رفعت بصرها إلى السماء وقالت : «اللهم إني أشكو إليك فاقتى، وشدة حالى، وإن لى من زوجى أولادًا صغارا، إن ضَمَّهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا، اللهم ففرِّج كربتى، واحْلُل عقدتى » .

قالت : وما برحتُ حتى نزل القرآن، فقال - ﷺ - : [أبشرى ياخولة] ثم قرأ - ﷺ - هذه الآيات .

وحرف « قد » فى قوله - تعالى - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾ : للتحقيق، ولتوقع الإجابة من الله - تعالى - على ما جادلت فيه تلك المرأة النبى - ﷺ -

والسماع فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ سمع ﴾ بمعنى : علْم الله ـ تعالى ـ التام، بما دار بين تلك المرأة وبين الرسول ـ ﷺ ـ واستجابته ـ سبحانه ـ لشكواها، وحكمه فى تلك المسألة بما يبطل ما كان شائعًا بشأنها قبل نزول هذه الآية .

وقوله : ﴿ تجادلك ﴾ : من المجادلة، وهى المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصلها من جَدلتُ الحبل : إذا أحكمت فتله .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ تشتكى ﴾ : من الشَّكْو، وأصله من الشَّكْوة ـ وهى سقاء صغير يجعل فيه الماء ـ وإظهار ما فيها، ثم شاع هذا الاستعمال فى إظهار الإنسان لما يؤلمه ويؤذيه، وطلب إزالته .

والمعنى : قد سمع الله سماعًا تامًا، قول هذه المرأة التى تجادلك ـ أيها الرسول الكريم ـ فى شأن ما دار بينها بين زوجها، وفيما صدر عنه فى حقها من الظهار، وسمع ـ عز وجل ـ شكواها إليه، والتماسها من خالقها حل قضيتها، وتفريج كربتها، وإزالة ما نزل بها من مكروه .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ التى تجادلك ﴾ بأسلوب الاسم الموصول، للإشعار بأنها كانت فى نهاية الجدال والشكوى، وفى أقصى درجات التوكل على ربها، والأمل فى تفريج كربتها، رحمة بها وبزوجها وبأبنائها .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ جملة حالية. والتحاور: مراجعة الكلام من الجانبين . يقال: حاور فلان فلاناً فى الكلام إذا راجعه فيما يقوله .

أى: والحال أن الله - تعالى - يسمع ما يدور بينك - أيها الرسول الكريم - وبين تلك المرأة، من مراجعة فى الكلام، ومن أخذ ورد فى شأن قضيتها .

والمقصود من ذلك: بيان الاهتمام بشأن هذا التحاور، والتنويه بأهميته، وأنه - تعالى - قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية .

وعبر - سبحانه - بصيغة الفعل المضارع « يسمع » لزيادة التنوية بشأن ذلك التحاور، ولاستحضار صورته فى ذهن السامع، ليزداد عظة واعتباراً.

وجملة: ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ : ختام قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق .

أى: أن الله - تعالى - يسمع كل المسموعات، ويبصر كل المبصرات، على أتم وجه وأكمله، ومن مقتضيات ذلك: أن يسمع تحاوركما، وأن يبصر ما دار بينكما .

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - أخرج ابن ماجة فى سننه : أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت: « تبارك الذى وسع سمعه كل شئ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علىّ بعضه،

وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله - ﷺ - وهى تقول : يا رسول الله ، زوجى أكل شبابى ، ونثرت له بطنى حتى إذا كبُر سنى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك » .

وفى صحيح البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت « خولة » تشكو إلى رسول الله - ﷺ - وأنا فى ناحية البيت لا أسمع ما تقول ، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها . . . ﴾ .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان شأن الظهار فى ذاته ، وفى بيان حكمه المترتب عليه شرعاً ، فقال : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أُمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . . . ﴾ .

ولفظ « يظاهرون » : من الظهار ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، قاصداً بذلك تحريم امرأته عليه كتحريم أمه عليه فى المعاشرة الزوجية .

والمعنى : والرجال الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ، بأن يقول الواحد منهم لامرأته : « أنت علىَّ كظهر أمى » فى حرمة المعاشرة ، قد أخطأوا فى ذلك ، لأن زوجاتهم لسن فى الحقيقة أمهاتهم ، وإنما هن زوجاتهم ، وما أمهاتهم إلا النساء اللائى ولدنهم ، وإن هؤلاء الذين قالوا لزوجاتهم هذا القول ، ليقولن الكلام المنكر والكاذب والمخالف للحق ، وإن الله - تعالى - لعفو غفور عمن صدر منه هذا القول ثم تاب و أناب .

ثم شرع ـ سبحانه ـ في تفصيل حكم الظهار بعد بيان كونه منكراً من القول وزوراً، فقال: ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾: بأن يحرموا على أنفسهم بلفظ الظهار معاشرة زوجاتهم: ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾.

أي: ثم يرجعون عن قولهم ويعزمون على مجامعة نسائهم، فعلى الزوج المظاهر في هذه الحالة: كفارةً لما تلفظ به: عتق رقبة مؤمنة قبل أن يعود لمجامعة امرأته التي ظاهر منها، ذلكم الذى شرعناه لكم ـ أيها المؤمنون ـ إنما شرعناه من أجل أن تتعظوا به والله ـ تعالى ـ خبير ومطلع على كل أقوالكم وأفعالكم وسيحاسبكم عليها.

فمن لم يجد منكم رقبة يعتقها، فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يجامع زوجته، فمن لم يستطع صيام الشهرين لعذر شرعي، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، بأن يقدم لهم طعاماً يكفى لغذائهم وعشائهم بصورة مشبعة.

﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي: فعلنا ذلك وشرعناه ليزداد إيمانكم بوحدانية الله ـ تعالى ـ وبصدق رسوله ـ ﷺ ـ.

﴿ وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ أي: وتلك الأحكام التي شرعناها لكم هي حدود الله ـ تعالى ـ التي لا يجوز لكم أن تتجاوزوها، وللكافرين الذين يتجاوزونها عذاب شديد الألم على من نزل به.

هذا، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة :

أن الدعاء متى صدر من لسان صادق، ومن قلب عامر بالإيمان، وبالتقوى والإخلاص، أجابه الله ـ تعالى ـ لصاحبه فى الحال، أو فى الوقت الذى يختاره ـ عز وجل ـ

ومن الأدلة على ذلك أن السيدة خولة ـ رضى الله عنها ـ عندما تضرعت إلى الله ـ تعالى ـ بقلب سليم، أن يكشف كربها، وأن يحل قضيتها، أجاب ـ سبحانه ـ دعاءها، وأنزل قرآناً يُتلى، وأحكاماً يُعمل بها فى شأن الظهار.

وقد بارك الله ـ تعالى ـ للسيدة خولة بنت ثعلبة ـ رضى الله عنها ـ فى حياتها، فعمرت صباحها ومساءها بالإيمان والعمل الصالح ...

ولقد مر بها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ومعه بعض الصحابة، فاستوقفته طويلاً، وكان مما قالته له : يا عمر، قد كنت تُدْعَى عُميراً، ثم قيل لك : ياعمر، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن الحساب خاف العذاب .

فقيل له : يا أمير المؤمنين، أتقف هذا الوقوف لتلك المرأة العجوز؟ فقال ـ رضى الله عنه ـ : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لاستجبت لها إلا للصلاة المكتوبة .

ثم قال - رضى الله عنه -: أتدرون مَنْ هذه ؟ إنها خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟

رضى الله عن السيدة خوله بنت ثعلبة، وألحقنا بها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

●●●●●

●●●

●●

●

أمهات المؤمنين

حديث القرآن الكريم عن أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن جميعًا - حديث له مكانته السامية، ومنزلته العالية، ومقاصده الجليلة، وهداياته الحكيمة ...

وإذا نظرنا إلى سورة « الأحزاب » على سبيل المثال، نرى أن هذه السورة الكريمة قد تحدثت عن أمهات المؤمنين فى بضع عشرة آية .

منها : بيان أن أمهات المؤمنين بمنزلة أمهات المسلمين جميعاً فى الاحترام والتكريم وفى حرمة الزواج بهن .

قال - تعالى - :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾[1]

والمعنى : النبى الكريم خاتم الرسل وأفضلهم محمد - ﷺ - أولى بالمؤمنين وأقرب إليهم من أنفسهم فى أمور الدين والدنيا وفى

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٦ .

المحبة والطاعة، لأنه لا يدعوهم إلا إلى الخير والبر ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى الشر والمعصية . . .

وأزواجه ـ ﷺ ـ بمثابة أمهاتكم ـ أيها المسلمون ـ في التوقير وفي حرمة زواجكم بهن بعد وفاته ـ ﷺ ـ وأقاربكم ـ أيها المؤمنون ـ بعضهم أولى ببعض في التوارث فيما بينهم، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة في كتاب الله ـ تعالى ـ فقد بين لكم ـ سبحانه ـ في آيات المواريث التي بسورة النساء، وكيفية تقسيم التركة بين الأقارب وهم بهذا البيان أولى في ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .

هذا هو حكم الله ـ عز وجل ـ فيما يتعلق بالتوارث، لكن إذا أردتم ـ أيها المؤمنون ـ أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين معروفًا، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس ولا حرج عليكم في ذلك .

وهذا الحكم الشرعي الذي بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب، كان مسطوراً ومكتوباً في اللوح المحفوظ وفي آيات القرآن الكريم التي سبق نزولها، فاعملوا بما شرعناه لكم، واتركوا مانهيناكم عنه .

ومنها : أمر النبي ـ ﷺ ـ أن يُخَيِّرَ أزواجه بين الرضا بالحياة معه مع زهده في زينتها ومُتعها، وبين طلاقهن وإعطائهن ما يرضيهن من أموال، وقد اخترن جميعاً ـ رضي الله عنهن ـ الحياة معه ـ ﷺ ـ

قال - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١)

والمعنى : يا أيها النبى الكريم ، قل لأزواجك اللائى فى عصمتك ، إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فأقبلن أعطيكن الأموال التى تُرضيكُن ، وأُفارقكُن دون ضرر أو إيذاء ، وإن كنتن لا تُردنَ ذلك ، وإنما تُردنَ ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله - ﷺ - والثواب يوم القيامة ، فاصبرن على ما أنتن عليه معى من الاكتفاء بضرورات الحياة ، واعلمن أن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا .

وقد اخترن جميعاً - رضىَ الله عنهن - ثواب الله ، والبقاء فى عصمة رسوله ، وما أعده الله - تعالى - لهن من أجر عظيم يوم القيامة ، لا يعلم مقداره أحد سوى الله - عز وجل -

---

ومنها : أمر الله - تعالى - لرسوله محمد - ﷺ - أن يُرغِّب أزواجه

---

١ - سورة الأحزاب . الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

فى التزام التحلى بالفضائل، وأن يخوفهن من الاقتراب من الرذائل، لأنهن قدوة لغيرهن من النساء، ولأنهن فى بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله - ﷺ - فعليهن أن يعتصمن بكل ما هو حق وخير وحسن فى هذه الحياة الدنيا ...

قال - تعالى -:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١)

أى: من يأت منكن يا أزواج النبى بمعصية ظاهرة، يضاعف الله - عز وجل - لها العذاب مرتين، لأن المعصية من الإنسان الرفيع الشأن مثلكن، تكون أشد قبحاً، وأغلظ ذنباً، وأكثر عقاباً.

ثم بين - سبحانه - ثواب أمهات المؤمنين إذا ما التزمن طاعة الله - تعالى - وطاعة رسوله - ﷺ - فقال:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (٢)

أى: ومن تقنت منكن لله ورسوله، وتعمل عملاً صالحاً، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفاً، وهيأنا لها زيادة على ذلك رزقاً كريماً، لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى -

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٣٠ .
٢ - سورة الأحزاب . الآية : ٣١ .

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداءً ثانياً إليهن فقال :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ (١)

والمعنى : يا نساء النبي محمد ـ ﷺ ـ لقد أعطاكن الله ـ تعالى ـ من الفضل والسمو ما لم يُعط غيركن ، وهذا الفضل لكُن متى اتقيتن الله ـ تعالى ـ ومادام الأمر كذلك فلا تتحدثن مع الأجانب بصوت لين يُثير الشهوات ، ويُطمع فيكُن المنافق الذى فى قلبه مرض وسوء ، وانطقن دائماً بالقول الحسن المحمود فى ظاهره وباطنه .

ثم أمرهن ـ سبحانه ـ بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ (٢)

والمعنى : والزمْن يا نساء النبى ـ ﷺ ـ بيوتكن ـ أنتن وغيركن من النساء المسلمات ـ ولاتخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ،

---

١ ـ سورة الأحزاب . الآية : ٣٢ .
٢ ـ سورة الأحزاب . الآية : ٣٣ .

كطلب العلم، وقضاء المصالح التى تستلزمها الحياة، وأداء العبادات والأعمال التى أحلها الله ـ تعالى ـ واحذرن أن تُظهر إحداكن زينتها إلا فى حدود ما أباحه الله ـ تعالى ـ فى ذلك، وابتعدن ابتعاداً عن أفعال النساء فى الجاهلية فقد كن يفعلن مايثير شهوة الرجال، ويلفت أنظارهم إليهن، وداومن على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص، وقدِّمن العون والزكاة للمحتاجين والمحتاجات، وأطعن الله ورسوله فى أمرهما ونهيهما ...

واعلمن أن الله ـ تعالى ـ ما أوصاكُن بهذه الوصايا الحميدة، إلا لِيُذهب ويمنع عنكن الآثام والذنوب يا أهل بيت النبى ـ ﷺ ـ وأن يُطهركن من كل سوءٍ تطهيراً تاماً كاملاً.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه التوجيهات الحكيمة بقوله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾(١)

أى: واذكرن ـ يا أزواج النبى ـ ﷺ ـ ما يُقرأ فى بيوتكن من آيات قرآنية، ومن أحاديث نبوية شريفة، واعملن بما تسمعن من مواعظ وإرشادات، ومرن غيركن أن يقتدى بكن فى ذلك، إن الله كان لطيفاً بكن حيث جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة، خبيراً بكن حيث اختاركن لرسول ـ ﷺ ـ أزواجاً.

---

١ ـ سورة الأحزاب. الآية: ٣٤.

ومنها : دفاع الله - تعالى - عن رسوله - ﷺ - وعن زوجته السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - التى تزوجها بعد أن طلقها زيد بن حارثة - الذى كان الرسول - ﷺ - قد تبناه ثم أعتقه -

قال - تعالى - :

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾(١)

أى : ما كان على النبى محمد - ﷺ - من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، فى فعل ما أحله الله - تعالى - له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فإن ما فعله - ﷺ - قد جعله الله - تعالى - سنة من سننه فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله - تعالى - قدراً مقدوراً لابد من وقوعه ووجوده .

ومنها : أن الله - تعالى - اختص نبيه محمداً - ﷺ - فى معاشرته لنسائه بتوسعة لم يخصّ بها سواه ، وهذه التوسعة لكى يعلم أزواجه جميعاً أنها من عند الله لا من عند غيره ، فتقرَّ أعينهن ، ويرضَينَ بما يفعله الرسول معهن رضاء تاماً لإيقانهن بأن ما يقوله - ﷺ - وما يفعله هو بوحى من الله - تعالى - إليه .

---

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٣٨ .

قال ـ سبحانه ـ:

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ
وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾[1]

ولفظ « تُرجِي » من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية .

ولفظ « تؤوى » من الإيواء بمعنى الضم والتقريب .

والمعنى: لقد وسعنا عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ في معاشرة نسائك، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن، وأن تضم إليك من شئت منهن، دون التقيد بوجوب القَسم بينهن، كما هو الشأن لأتباعك ،حيث أوجبنا عليهم العدل بين الزوجات في البيات والنفقة ...

وأبحنا لك ـ أيضاً ـ أن تعود إلى البيات عند من تركت المبيت عندها، وأن تترك المبيت عند من تعودت المبيت عندها، فالأمر في كل ذلك على حسب ما يقع عليه اختيارك .

وقد أبحنا لك ذلك، لأن هذه الإباحة هي الأقرب إلى رضا نفوس نسائك وإلى عدم حزنهن، وإلى قبولهن لما تفعله معهن،

---

١ ـ سورة الأحزاب . الآية : ٥١ .

لأنهن متى عرفن أن ما تفعله معهن هو بوحى من الله - تعالى - إليك، وليس باجتهاد منك، طابت نفوسهن، والله - تعالى - يعلم ما فى نفوسكم جميعاً، وكان الله - تعالى - ومازال عليماً بأحوال خلقه، حليماً لا يعاجلهم بالعقوبة .

ومنها: أن الله - تعالى - كما كرم رسوله محمداً - ﷺ - فى التوسعة عليه في معاشرة نسائه، وكان هذا التكريم يحمل فى طياته إزالة كل ضيق أو حزن من نفوسهن، جاءت آية أخرى عقب ذلك بتكريم لنسائه - ﷺ - حيث منع الله - تعالى - نبيه محمداً - ﷺ - من الزواج بغيرهن، فقال - تعالى - :

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾(١)

والمعنى: لا يجوز لك - أيها الرسول الكريم - أن تتزوج بنساء أُخريات سوى من هُنَّ فى عصمتك، لأنهن قد آثرن رضا الله ورضاك، وقَبِلْنَ شظف العيش معك، والزهد فى مُتع الحياة الدنيا . . .

---

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٥٢ .

كما لا يجوز لك - أيضاً - أن تُطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها، حتى ولو أعجبك جمال من تريد الزواج بها من غير نسائك اللائى هن فى عصمتك، ولكن يجوز لك أن تضم إلى من هُنَّ فى عصمتك مَنْ شئت من النساء اللائى هُنَّ فى ملك يمينك ...

وكان الله - تعالى - ومازال، مُطلعاً على كل شئ من أحوالكم، فاحذروا أن تتجاوزوا ماحدده - سبحانه - لكم .

ومنها : أَمْرُ الله - تعالى - لنبيه محمد - ﷺ - أن يبدأ بتكليف أزواجه وبناته بصفة خاصة ونساء المؤمنين عامة، بأن يلتزمن الاحتشام والتستر فى ملابسهن ...

قال - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(١)

والمعنى : يا أيها النبى الكريم، قُل لأزواجك اللاتى فى عصمتك، وقُل لبناتك اللاتى هُنَّ من نسلك، وقُل لنساء المؤمنين كافة ... قل لهن جميعاً : إذا ما خرجن من بيوتهن لأمر يستدعى الخروج، فعليهن أن يسترن ما أمر الله بستره من أبدانهن ستراً تاماً ...

---

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٥٩ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ : بيان للحكمة من الأمر بالتستر والاحتشام.

أى: ذلك الذى أمرناكن بفعله ـ أيتها النساء ـ أقرب إلى تمييزكن عن غيركن من النساء اللاتى لا يلتزمن بهذا الأدب السامى، وأبعد عن الريبة وعن التعرض للأذى ممن فى قلوبهم مرض من الرجال، وكان الله ـ تعالى ـ ومازال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة من الذنوب والآثام.

هذا جانب من حديث القرآن فى سورة واحدة هى سورة الأحزاب عن أمهات المؤمنين، وهو حديث فيه ما فيه من التكريم العظيم، ومن التوجيه الحكيم، ومن العظات والعبر لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وهاك ترجمة موجزة عن كل واحدة من أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن جميعاً ـ.

---

١ - أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -

ذكر الثقاة من المؤرخين عند حديثهم عن السيدة خديجة - رضى الله عنها - أنها : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَى ... فهى تلتقى مع النبى -ﷺ- فى جده الرابع قُصَى بن كلاب ... وكان أبوها «خويلد» من أغنياء مكة ومن رجالها المرموقين، والمعروفين بالمروءة والشرف ... وأما أمها فهى فاطمة بنت زائدة من بنى عامر بن لؤى فهى قرشية - أيضا -

ونشأت السيدة خديجة - رضى الله عنها - فى تلك الأسرة الكريمة التى جمعت بين اليسار والغنى فى المال، وبين المنبت الحسن فى النسب، وكانت ولادتها فى السنة الثامنة والستين قبل الهجرة النبوية الشريفة.

وعندما بلغت - رضى الله عنها - سن الزواج، تزوجت بأبى هالة النباش بن زرارة التميمى، فأنجبت منه ولداً اسمه « هالة » ثم مات زوجها هذا بعد فترة يبدو أنها ليست طويلة ...

فتزوجت برجل آخر اسمه عتيق بن عابد المخزومى، وأنجبت منه بنتاً هى « هند » ثم توفى عنها - أيضاً - هذا الرجل ...

وكانت السيدة خديجة توصف منذ بلوغها بالطاهرة لشدة

عفافها، وبسيدة نساء قريش، لذا خطبها بعد وفاة زوجها الأول والثانى عدد من الرجال، إلا أنها لم ترغب فى ذلك، وآثرت التفرغ لتربية ولديها ورعايتهما . . .

وكانت - رضى الله عنها - ذات مال، فاستغلت هذا المال فى التجارة، وكانت ثاقبة البصيرة، خبيرة بأغوار الرجال، تعرف طباعهم، وتميز بين الصادق وغير الصادق، فكانت تستأجر من تختاره منهم للتجارة فى مالها بأجر معين تعطيه لهم . . .

وفى مجلس من المجالس التى ضمت الرسول - ﷺ - وعمه أبا طالب، قال أبو طالب للنبى - ﷺ - : « يا بن أخى، أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه عير قومك - أى: تجارة قومك - قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون فى مالها، ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك . . . » .

فقال - ﷺ - : « لعلها ترسل إلىَّ فى ذلك » .

وبلغ هذا الحوار الذى دار بين أبى طالب وبين ابن أخيه محمد - ﷺ - فبادرت بالإرسال إليه لما عرفت عنه من الصدق والأمانة، وعرضت عليه أن يخرج للتجارة فى مال لها إلى الشام، وأن تعطيه من الأجر أكثر مما تعطى لغيره، فقبل - ﷺ - هذا العرض.

ثم خرج - ﷺ - إلى بلاد الشام، ومعه غلام للسيدة خديجة اسمه « ميسرة » .

وربح - ﷺ - فى تلك التجارة - ربحاً عظيماً خلال عرضها فى بلاد الشام، ثم عاد إلى مكة ومعه « ميسرة » الذى سارع إلى سيدته خديجة - رضى الله عنها - فقصَّ عليها أن تجارتها فى هذه المرة قد ربحت ربحاً لم تربحه من قبل، كما قصَّ عليها ما شاهده من النبى - ﷺ - : من خُلق كريم، ومن صدق وأمانة، ومن غرائب وعجائب وكرامات لم يعرفها لأحد من البشر ...

واستقبلت السيدة خديجة محمداً - ﷺ - بالسرور والشكر على الربح الوفير الذى عاد إليها من تجارتها .

ولكن هذا الشكر والسرور الذى قابلت به السيدة خديجة - رضى الله عنها - رسول الله - ﷺ - لم يكونا كافيين بالنسبة لها، فقد مال قلبها إلى النبى - ﷺ - وتمنت لو أنه - ﷺ - كان زوجاً لها، لأنها لم تر فى حياتها كلها مثالاً أو شبيهاً له فى صدقه وفى أمانته، وفى حيائه واستقامته، وفى رجولته وبهاء هيئته، وفى شرف نسبه وكمال مروءته ...

وفى أحد الأيام وهى تفكر فى الطريقة التى بها يتم الزواج بالرسول - ﷺ - جاءت لزيارتها صديقتها السيدة «نفيسة بنت منية» وخلال حديث السيدة خديجة معها، كاشفتها برغبتها فى الزواج من محمد بن عبد الله - ﷺ -

ويسرت لها «نفيسة» الأمر، واتجهت إلى النبى - ﷺ - لتقول له: يا محمد، ما الذى يمنعك من الزواج؟

فقال لها - ﷺ -: ليس عندى من المال ما أتزوج به.

فقالت له: فإن دُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟!

فقال لها - ﷺ -: ومن هذه؟

فقالت له: إنها خديجة بنت خويلد ذات الشرف والمال والجمال...

فقال لها - ﷺ -: إنى أقبل الزواج بها ولكن كيف يتم ذلك؟

فأجابته: اترك ذلك لى!!

وأسرعت «نفيسة» لتبشر السيدة خديجة بقبول محمد بن عبدالله - ﷺ - الزواج بها.

ولم تمض سوى فترة قصيرة أخبر فيها النبى - ﷺ - عمه أبا طالب وعمه حمزة بقبوله الزواج من السيدة خديجة، وأخبرت فيها خديجة أقاربها بقبولها الزواج به - ﷺ -

والتقت الأسرتان فى بيت خديجة - رضى الله عنها - وتم الإيجاب والقبول، واختارت خديجة عمها: عمرو بن أسد ليكون وكيلاً عنها فى الزواج بمحمد بن عبد الله - ﷺ -

وكان مهرها أربعمائة درهم، وقيل : كان مهرها عشرين ناقة من الإبل، وأمرت خديجة من هُنَّ فى خدمتها بتقديم الطعام إلى من حضر هذا الزواج السعيد ...

وذكر المؤرخون أن أبا طالب عم النبى - ﷺ - ألقى خطبة بهذه المناسبة قال فيها : « الحمد لله الذى جعلنا من زَرْعِ إبراهيم، وذرية إسماعيل،وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس،ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى، من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه : براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونُبلاً، وإن كان فى المال قُلّ، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلىَّ » .

وقام «عمرو بن أسد» عم خديجة، فأثنى عليها، وعلى أبى طالب ومن معه...

وذكر المؤرخون أن السيدة حليمة السعدية التى تولت رضاع النبى - ﷺ - فى صغره، حضرت حفل زواجه - ﷺ - من السيدة خديجة، وفرحت به... فما كان من السيدة خديجة إلا أن كافأتها بأن أهدتها أربعين رأساً من الغنم، لتلك المرأة التى أرضعت محمداً - ﷺ - فى صباه.

وهكذا تم الزواج بين محمد بن عبد الله - ﷺ - أفضل الخلق على الإطلاق، من خديجة التىّ تكبره بخمس عشرة سنة، لأنه كان

يرى فيها : الطهارة والعفاف، والعقل الراجح، والسلوك الحميد، والخلق العظيم ...

وعاش الزوجان تظلهما كل ألوان الحياة الطيبة المشتملة على المودة والرحمة، والسكن والمحبة، والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ...

وامتدت هذه الحياة الطيبة بين الزوجين الكريمين مدة خمس وعشرين سنة، أنجبت خلالها خديجة - رضى الله عنها - من الرسول - ﷺ - جميع أولاده ماعدا إبراهيم الذى كان من « مارية » .

أنجبت له من الذكور « القاسم » وبه كان يُكَنَّى - ﷺ - وأنجبت له « عبد الله » الذى كان يُلقب بالطيب والطاهر، وقد ماتا وهما صغيران قبل بعثته - ﷺ -

وأنجبت له أربعة من الإناث هُنَّ : زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة - رضى الله عنهن - جميعاً .

أما زينب : فقد تزوجت بابن خالتها العاص بن الربيع، وتوفيت فى السنة الثامنة من الهجرة .

وأما رقية : فقد تزوجها ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، ولحقت بربها فى رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وأما أم كلثوم : فقد تزوجها عثمان - أيضاً - بعد وفاة شقيقتها رقية، وتوفيت في السنة التاسعة من الهجرة.

وأما فاطمة الزهراء : فقد تزوجت بفارس الفرسان على بن أبى طالب، وتوفيت بعد ستة شهور من وفاة أبيها - ﷺ -.

ولقد تلقت السيدة خديجة - رضى الله عنها - موت ولديها - القاسم وعبد الله - بصبر جميل، وكانت مثالاً للمرأة صاحبة العزم الراسخ، والإيمان العميق.

وعاشت مع النبي - ﷺ - خمس عشرة سنة قبل بعثته - ﷺ - معيشة المرأة التى تُطيع زوجها في كل ما يأمرها به، وتحرص كل الحرص على رضاه وراحته، لم ترفع عليه صوتاً، ولم تخالف له رأياً...

كانت تهيئ له الزاد كل عام عندما يغادر مكة إلى غار حراء ليقضى فيه الليالى ذوات العدد متأملاً متفكراً، وكانت تشعر فى قرارة نفسها أن زوجها - ﷺ - هو رجل ليس كبقية الرجال، وأنه سيكون له شأن عظيم، لذا عندما نزل عليه جبريل وهو - ﷺ - فى غار حراء، وقال له : اقرأ، فردَّ بقوله : ما أنا بقارئ، وضمه جبريل - عليه السلام - ضمات شديدة ثلاث مرات، وقال له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[1]

---

١ - سورة العلق . الآيتان : ١ - ٢ .

وعاد ـ ﷺ ـ إلى بيته خائفاً يرجف فؤاده، وقال لزوجه السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ : [زملونى زملونى لقد خشيت على نفسى . . .] . وما كان منها ـ رضى الله عنها ـ إلا أن قالت له مشجعة ومثبتة ومطمئنة لقلبه : الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يابن العم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . . .

ثم واصلت تثبيتها له ـ ﷺ ـ فقالت : والله لا يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرَّحم، وتَحمل الكَلَّ ـ أى : وتساعد المحتاج ـ وتَكْسبُ المعدوم، وتَقْرى الضيف، وتُعين على نوائب الحق ـ أى : وتعين غيرك على ما يُصلحه ـ

ولم تكتف بكل هذا، بل ذهبت به ـ ﷺ ـ إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» وكان له اطلاع على كتب الأولين، وقالت له : يابن العم، اسمع من ابن أخيك محمد ـ ﷺ ـ

فقال له ورقة : يابن أخى، ماذا حدث لك ؟

فأخبره ـ ﷺ ـ بما حدث له، فقال له ورقة : يا محمد، هذا هو الناموس ـ أى الوحى ـ الذى نزل على موسى . . . ثم بشره بالنبوة .

وجاء الأمر من الله ـ تعالى ـ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ لينهض فيأمر الناس بإخلاص العبادة لله الواحد القهار، وبالتحلى بمكارم الأخلاق

ونزل عليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[1]

فلبى ـ ﷺ ـ دعوة ربه :

﴿ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[2]

ووقفت السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ تؤيده وتناصره، فكانت أول من آمن به وصدَّقه، وكانت المؤانسة له عند الوحشة، والمواسية عند الكربة، والباذلة لمالها له عند الحاجة، والسكن المريح له ـ ﷺ ـ عند الشدة.

قال ابن إسحاق فى سيرته : « كانت خديجة أول من آمن بالنبى ـ ﷺ ـ وكان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يسمع شيئًا يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بها ـ رضى الله عنها ـ إذا رجع إليها تُثَبِّتُه وتُخفف عنه، وتُصدِّقه وتُهوِّن عليه أمر الناس... » .

وقفت ـ رضى الله عنها ـ إلى جانب النبى ـ ﷺ ـ وقاسمته متاعب النبوة وآلام الرسالة، فعندما قاطعته قريش وحاصرته فى شعب من شعاب مكة، انضمت إليه ـ ﷺ ـ وتحملت ما تحملت من متاعب،

١ ـ سورة المدثر . الآيات : ١ ـ ٤ . ٢ ـ سورة الأحزاب . الآيتان : ٤٥ ـ ٤٦ .

وهى التى نشأت فى بيئة غنية ، ولم ترفع صوتها طول حياتها على النبى - ﷺ - لذا بشرها الله - تعالى - فى حياتها بما يسعدها .

جاء في الحديث الصحيح : « أن جبريل - عليه السلام - أتى إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا محمد ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب - أى : من لؤلؤ مجوف - لا صخب فيه ولا نصب » .

وفى السنة العاشرة من بعثته - ﷺ - توفى عمه أبو طالب ، وبعد وقت ليس بالطويل من وفاة أبى طالب تُوفيت زوجه خديجة - رضى الله عنها - ففقد الرسول - ﷺ - بموتهما نصيراً خارج بيته ونصيراً داخل بيته ، وسمى الرسول - ﷺ - العام الذى توفيا فيه بعام الحزن .

وبقى - ﷺ - وفياً لزوجه خديجة - رضى الله عنها - إلى أن لقى ربه ، فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « ما غرْتُ على أحد من نساء النبى - ﷺ - إلا على خديجة وإنى لم أدركها » .

وكان رسول الله - ﷺ - إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة ، قالت عائشة : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ، فقال : [إنى قد رُزِقْتُ حُبَّها] .

وفى حديث آخر قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « استأْذنتْ هالة بنت خويلد ـ شقيقة خديجة ـ على رسول الله ـ ﷺ ـ فتذكر استئذان خديجة فارتاع لذلك ـ أى : فاهتز وتأثر لذلك ـ وقال : [اللهم هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ] » .

وهكذا بقى النبى ـ ﷺ ـ وفيًّا لأمِّ المؤمنين الأولى خديجة التى لقيت ربها وهى فى الخامسة والستين من عمرها ـ فرضى الله عنها وأرضاها ـ

٢ ـ أم المؤمنين
سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ

كانت الأيام التى عاشها النبى ـ ﷺ ـ فى أعقاب موت عمه أبى طالب ، وزوجته السيدة خديجة ، من أشد الأيام ألمًا لنفسه ، وحزنًا لقلبه ، وجرأة لأعدائه عليه . . .

لقد كان أبوطالب حصناً حصيناً يحوط رسول الله ـ ﷺ ـ من جميع نواحيه ، ويدفع عنه الكثير من الأذى . . .

وكانت زوجته خديجة ـ رضى الله عنها ـ سكنه الذى يأوى إليه ، ويستجير به كلما اشتد به الهم ، وضاق صدره بما يلقى من عناد المشركين . . .

كان أبوطالب العون القوى للرسول ـ ﷺ ـ فى خارج البيت . . .

وكانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ : النصير المخلص ، والأنيس العطوف . . . فى داخل البيت .

كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ : القلب الكبير الذى يشكو إليه فيحرص على إزالة الشكوى ، كانت العقل الذكى الحصيف الذى يقود إليه الرأى الصائب فى الشدة والرخاء ، وفى السراء والضراء ، كانت الكنز الثمين الذى يزوده بكل ما يحتاجه لمطالب حياته ،

كانت الصدر الحنون الذى يغمره - ﷺ - بالحب والحنان، ويمده بالعزم والقوة، ويساعده على الوقوف فى وجوه الصم البكم الذين لا يعقلون ...

لقد ذكر المؤرخون صوراً متعددة لألوان من الأذى والاستهزاء والتطاول الذى قام به المشركون بالنسبة للنبى - ﷺ -

قال ابن إسحاق: « ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله - ﷺ - المصائب بموت خديجة - رضى الله عنها - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها آلامه ... » .

وكان عمه أبو طالب عَضُداً وحرزاً فى أمره، وأَمَنَةً وناصراً على قومه... فلما هلك أبوطالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ما لم تكن تستطيعه فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً ...

فدخل - ﷺ - بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، فقال لها - ﷺ -: [لا تبكى يا بُنيـةُ، فإن الله مانع أباك] .

وكان - ﷺ - يقول: [ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب] .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: « حضرتُ قريشاً يوماً وقد اجتمع أشرافهم في الحِجْر، فذكروا رسول الله - ﷺ - وقالوا: إن محمداً - ﷺ - شتم آباءنا، وعاب آلهتنا، وفرق جماعتنا... فلما خرج عليهم رسول الله - ﷺ - أحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، فقام أبوبكر دونه وأخذ يدفعهم عنه، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله » .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: « بينما رسول الله - ﷺ - يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحرت جزورٌ - أى : ناقة - بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور - أى: إلى أمعاء وأوساخ ناقة - بنى فلان، فيضع كل ذلك على كتفى محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذها فوضعها بين كتفيه، فأخذ القوم يضحكون ويميل بعضهم إلى بعض، وأنا قائم أنظر، ولو كان لى منعة لطرحتها عن ظهر رسول الله - ﷺ - والنبى - ﷺ - ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر ابنته فاطمة - رضى الله عنها - فجاءت - وهى جويرية - أى: فتاة صغيرة - فطرحت عنه تلك الأوساخ، ثم أقبلت على القوم تشتمهم، فلما قضى النبى - ﷺ - صلاته، رفع رأسه ثم دعا عليهم ... » .

وخلال تلك الأيام العصيبة التى كان يعيشها النبى - ﷺ - فى أعقاب موت عمه أبى طالب، وزوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها -

جاءت إلى النبى - ﷺ - السيدة «خولة بنت حكيم السُّلَمِيَّة» زوجة الصحابى الجليل عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - وكانت هى وزوجها من السابقين إلى الإسلام، وممن هاجر الهجرتين إلى الحبشة فرارًا بدينهما من أذى المشركين . . .

جاءت إليه - ﷺ - متلطفة مترفقة بعاطفة الأنثى التى أدركت الفراغ الذى دخل على البيت النبوى بوفاة السيدة خديجة - رضى الله عنها -

جاءت إليه - ﷺ - لتقول له: «يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خَلَّة - أى: حاجة - لفقد خديجة ؟».

فقال لها - ﷺ - : [أجل، كانت أم العيال وربة البيت] .

فقالت له: «أفلا أخطب عليك ؟» .

فقال لها - ﷺ -: [بلى، فإنكن معشر النساء أرفق بذلك] .

فعرضت عليه السيدة «سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ» فوافق - ﷺ - على الزواج بها.

والسيدة «سَوْدَةَ» هى : بنت زَمْعَةَ بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود العامرية القرشية، وأمها تسمى : الشموس بنت قيس بن زيد من بنى عدى بن النجار من قبيلة الخزرج، فهى من أشراف قريش.

وكانت - رضى الله عنها - من السابقات إلى الإسلام، تزوجت ابن عمها السكران بن عمرو - رضى الله عنه - وأذن لهما النبى - ﷺ - فى الهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين للمسلمين . . .

ثم عادا إلى مكة مع من عاد إليها بعد أن بلغهم أن حدَّة الأذى قد هدأت بعد إسلام عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب، عم النبى - ﷺ -

وقد ذكر أصحاب السِّيَر أن السيدة سودة - رضى الله عنها - رأت فى المنام أن قمراً هبط عليها وهى نائمة، فأخبرت زوجها بذلك، فقال لها: وأبيك لئن صَدَقتْ رؤياك لم أَلْبَثْ إلا يسيراً من الزمان، ثم أموت وتتزوجين من بعدى .

وصدق زوجها - رضى الله عنه - فى تفسيره لرؤيا زوجته سودة ،إذ لم يمض وقت طويل حتى توفى .

وتركت وفاته فى قلب السيدة سودة - رضى الله عنها - حزناً شديداً، وفراغاً فى حياتها، وخاصة أنها لم يكن لها منه أولاد، وكان معظم أقاربها وأقاربه مازالوا على دين قومهم، ولم يدخلوا فى الإسلام بعد .

وجاءت « خولة بنت حكيم » لتزف البشرى إلى قلب «سودة بنت زمعة » ولتخبرها بأن الرسول - ﷺ - قد وافق على الزواج بها، ولتقول لها: ماذا أدخل الله عليك يا سودة من الخير والبركة؟

فقالت لها « سودة » بدهشة وتعجب : وماذا حدث يا خولة ؟
فقالت لها خولة : أبشرى فإن رسول الله - ﷺ - قد أرسلني إليك لكي أخطبك عليه ، وتصيرين زوجة له .

وهنا امتلأ قلب سودة بالسرور والفرح ، فهذه أحلامها تتحقق ، ورؤياها تصبح حقيقة ، وعما قريب ستصير زوجاً لرسول الله - ﷺ - فما أعظمه من شرف ، وما أعلاها من منزلة . . .

ثم قالت سودة لخولة - رضى الله عنهما -: يا خولة ، ادخلي على أبي فأخبريه بذلك .

فدخلت « خولة » على والد « سودة » وكان شيخاً كبيراً تقدمت به السن ، فحيته ، ثم قالت له : إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - ﷺ - أرسلني أخطب عليه ابنتك « سودة » ! !

فقال والدها « زمعة بن قيس » : محمد بن عبد الله ، إنه كفء كريم ، فماذا قالت « سودة » ؟

فقالت له : إنها تحب ذلك . فسألها أن تدعوها إليه ، فلما حضرت قال لها أبوها : يا سودة ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم أفتحبين أن أزوجك إياه ؟

فقالت « سودة » : نعم .

وتم الزواج - كما يقول « ابن سعد » في طبقاته - في شهر رمضان من السنة العاشرة من بعثته - ﷺ - وكان وكيلاً عنها في زواجها من النبي - ﷺ - ابن عمها حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وكان صداقها أربعمائة درهم .

ولا شك أن زواج النبي - ﷺ - بالسيدة سودة بنت زمعة - رضى الله عنها - لم يكن من أجل متعة جسدية، أو شهوة بدنية وإنما كان من أجل تكريمها والرحمة بها والشفقة عليها، بعد أن مات عنها زوجها، وبعد أن عادت من الهجرة وبقيت مع عدد من أقاربها أكثرهم مازال على غير دين الإسلام وربما كان بقاؤها بين أقاربها الذين معظمهم من المشركين، يؤدى إلى فتنتها وزعزعة عقيدتها . . .

فكان زواج النبى - ﷺ - بها وهى فى الخامسة والستين من عمرها، أسمى ألوان التكريم لها، والحماية والصيانة لها من أذى بعض المشركين والمشركات . . .

ولا شك أن الرسول - ﷺ - عندما عرضت عليه خولة بنت حكيم الزواج بسودة بنت زمعة، تذكر - ﷺ - جهادها وهجرتها ومبادرتها إلى الدخول فى الإسلام، ووفاة زوجها عنها، ووجودها فى أسرة لم ينتشر الإسلام فيها بعد بصورة مرضية . . .

لا شك أن الرسول - ﷺ - عندما تذكر كل هذه المعانى للسيدة سودة، وهو - ﷺ - سيد من يرحم المؤمنين، ويكرم الضعفاء من الصادقين والصادقات . . .

لا شك أن تذكره - ﷺ - لهذه الملابسات التى تحيط بالسيدة سودة، جعلته يمد يده الرحيمة إليها، ليسند شيخوختها، ويهون عليها ماذاقته من آلام ومن متاعب تحملتها خلال هجرتها، وخلال عودتها، وخلال تأثرها لموت زوجها . . .

وعاشت السيدة سودة - رضى الله عنها - في بيت النبوة بمكة لمدة ثلاث سنوات في خدمة النبى - ﷺ - وفى رعاية ابنتيه أم كلثوم وفاطمة - رضى الله عنهما -

فلما هاجر - ﷺ - إلى المدينة المنورة، بعث إلى ابنتيه وزوجه سودة، بعث زيد بن حارثة وأبا رافع، فسافرا بهن من مكة إلى المدينة.

وأدركت السيدة سودة - رضى الله عنها - منذ زواجها بالنبى - ﷺ - بمقتضى أنوثتها وسنها وتجربتها وفطرتها النقية، أن زواجها بالنبى - ﷺ - ليس زواج متعة وشهوة، وإنما هو زواج بر ورحمة ...

وكان يُرضيها ذلك كل الرضا، لأن مقصدها الأسمى أن تكون من بين أزواج النبى - ﷺ - وأن تكون من بين أمهات المؤمنين اللائى لهن ما لهن من المنزلة السامية، والمكانة العالية ...

لذا لم تتردد عندما شعرت أن النبى - ﷺ - بمقتضى سنها وشيخوختها لا يميل إليها بدنياً مع إكرامه لها كواحدة من زوجاته...

لم تتردد في أن تقول له: « يا رسول الله، والله ما بى على الأزواج من حرص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله - تعالى - يوم القيامة زوجة لك ».

وقد أشارت السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلى ذلك عندما

قالت : «كانت سودة بنت زمعة قد أَسَنَّتْ - أى : تقدمت بها السن - وكان رسول الله - ﷺ - لا يستكثر منها، وقد علمت مكانى من رسول الله - ﷺ - وأنه يستكثر منى، فخافت أن يفارقها، فقالت : يا رسول الله، يومى الذى يصيبنى لعائشة، وأنت منه فى حل، فقبله منها النبى - ﷺ - وفى ذلك نزل قوله - تعالى - :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا . . . ﴾[1]

وكانت السيدة سودة - رضى الله عنها - تمتاز بالبساطة التى أحياناً توشك أن تصل إلى السذاجة، وكانت يُسعدها دائماً أن ترى الرسول - ﷺ - فى سرور دائم، قالت له - ﷺ - ذات يوم : صليتُ خلفك الليلة يا رسول الله، فركعتَ بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم، فتبسم - ﷺ - ضاحكاً من قولها .

وحدث منها فى أعقاب غزوة بدر، أن رأت من بين أسرى المشركين أحد أقاربها وهو سهيل بن عمرو، وقد شد المسلمون وثاقه، فلم تملك نفسها أن قالت له : يا سهيل، أعطيتم بأيديكم، هلاَّ مُتُّم كراماً ؟

١ - سورة النساء . الآية : ١٢٨ .

فلما سمع منها رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك قال لها : [يا سودة ، أعلى الله ورسوله تُحرضين ؟!!] .

فقالت : يا رسول الله ، اعذرنى فوالذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت سهيلاً مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت ، والحق أن السيدة « سودة » عاشت فى بيت النبوة آمنة مطمئنة ، محبة لرسول الله ـ ﷺ ـ وطائعة له طاعةً تامةً ، حجت معه حجة الوداع ، وبعد وفاته ـ ﷺ ـ آلت على نفسها ألا تحج أو تعتمر ، وقالت : حججتُ واعتمرتُ ، فأنا أَقَرُّ فى بيتى كما أمرنى الله ـ عز وجل ـ .

وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقد تجاوزت الثمانين سنة .

٣ ـ أم المؤمنين
عائشة ـ رضي الله عنها ـ

عندما يتحدث الإنسان عن أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ يجد مجال الحديث عنها متعدد المناقب، متنوع الفضائل، متكامل المواهب ...

إنها « عائشة » بنت أبى بكر الصديق، عبد الله بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو بن سعد بن تيم بن مُرة بن كعب، فهو يلتقى مع النبى ـ ﷺ ـ فى الجد السادس: مُرة بن كعب.

وأبوبكر الصديق هو أول من آمن بالنبى ـ ﷺ ـ من الرجال، وأول خليفة للمسلمين بعد رسول الله. وأول من بذل أمواله فى سبيل الله ...

وفيه قال ـ ﷺ ـ : « ما نفعنى مال قط، كما نفعنى مال أبى بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر، ولكن أُخُوَّة الإسلام ومودته، وما لأحد عندنا يد إلا وكافأناه عليها ما خلا أبابكر، فإن له عندنا يداً يُكافئه الله عليها يوم القيامة، وأبوبكر أول مَنْ يدخل الجنة منْ أمتى ... » .

أما أم عائشة فهى: زينب أم رومان بنت عمير بن عامر بن الحارث الكنانية، كانت من الصحابيات السابقات إلى الإسلام ...

قال عنها النبي - ﷺ - : « من سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » .

تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي، ثم توفي عنها، فتزوجها أبو بكر الصديق - رضي الله عنها - وأنجبت منه عائشة وعبد الرحمن .

وتُوفيت بالمدينة المنورة في شهر ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة، نزل - ﷺ - في قبرها واستغفر لها وقال: «اللهم لم يَخْفَ عليك ما لَقِيتْ أم رومان فيك وفي رسولك » .

كانت ولادة السيدة عائشة - رضي الله عنها - بمكة، بعد أربع سنين أو خمس سنين من بعثته - ﷺ - ونشأت في هذا الجو الإسلامي الذي يظلل أبويها، فأسلمت وهي في سن الصبا .

ففي صحيح البخاري أنها قالت خلال حديثها عن هجرتها إلى المدينة المنورة : « لم أعقل أبوي قط إلا يدينان الدين » .

وكانت معرفة الرسول - ﷺ - بها وبأختها أسماء، وببقية أفراد أسرة أبي بكر مبكرة، لأنه - ﷺ - كان يتردد كثيراً على بيت أبي بكر، وكان يرى عائشة ويلاطفها وهي في سن الصبا، وكان لها دورها المشرِّف مع أختها أسماء عند هجرة النبي - ﷺ - إلى المدينة المنورة، ولم يكن معه في تلك الهجرة سوى والدها أبي بكر الصديق - رضي الله عنها -

وقد خطبها النبى - ﷺ - قبل هجرته إلى المدينة المنورة، إلا أنه - ﷺ - لم يدخل بها إلا بعد هجرته - ﷺ - إلى المدينة، وتم زفافها إلى الرسول - ﷺ - فى شهر شوال من السنة الأولى للهجرة .

وتحكى السيدة عائشة - رضى الله عنها - قصة زفافها إلى رسول الله - ﷺ - فتقول : « قدمنا المدينة فنزلنا فى بنى الحارث بن الخزرج، فأتتنى أمى وإنى لفى أرجوحة بين عرقْين - أى : بين نخلتين - ومعى صواحب لى، فأتيتها وأنا لا أدرى ما تُريد، فأخَذَت بيدى حتى أوقفتنى على باب الدار، وإنى لأنهج، ثم أدخلتنى فإذا نسوة من الأنصار فقلن : على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتنى إليهن فغسلن رأسى وأصلحننى وهيأننى، فلم أنشب أن جاء رسول الله - ﷺ - ودخل ... » .

وفى رواية أنها قالت : « جاء رسول الله - ﷺ - بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين، فأنزلتنى، ثم سوت شعرى، ومسحت وجهى بشئ من ماء، ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب، وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى، ثم أدخلتنى ورسول الله - ﷺ - جالس على سرير فى بيتنا، فأجلستنى وقالت : هؤلاء أهلك يا رسول الله، فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك » .

ودخلت عائشة - رضى الله عنها - الحياة الزوجية مع سيد الخلق - ﷺ - فوجدت فيها القلب الرحيم، والوجه الضحوك، والحنان المتدفق، والكلام الطيب الذى زادها استبشاراً وسروراً ومحبة لاحدود لها لسيد الخلق - ﷺ -.

وتحكى - رضى الله عنها - جانباً من تلك الأقوال الطيبة، ومن المعاملة الحسنة، ومن الحياة المرحة البهيجة التى كانت تحياها فى بيته - ﷺ - فتقول - كما جاء فى الأحاديث الصحيحة -: « قال لى ﷺ: [أُريتُكِ فى المنام ثلاث ليال، جاءنى بك المَلَكُ فى سَرَقَة من حرير - أى: فى قطعة من الحرير الأخضر - فقال: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت هى، فأقول: إن يَكُ هذا من عند الله يُمْضه] .

ثم تقول - رضى الله عنها - قال لى رسول الله - ﷺ - : [يا عائشُ، هذا جبريل يُقرئك السلام] فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى يا رسول الله ما لا أرى .

وتقول: كنت ألعب بالبنات - أى: بصورهن - عند رسول الله - ﷺ - وكانت تأتيني صواحبى فكن يَنْقَمِعْنَ - أى: يستترن - من رسول الله - ﷺ - فكان يُسَرِّبُهُنَّ إلىَّ - أىَ: يأمرهن بالذهاب إلىَّ -

وتقول: قَدِمَ الرسول - ﷺ - مرة من غزوة وفى سَهْوَتِى - أى: مخدعى - سِتْرٌ، فهبت الريح فانكشفت ناحية الستر عن بنات لى لُعَب، فقال: [ماهذا يا عائشة؟] قلتُ: بناتى، ورأى - ﷺ - بينهن فرساً له جناحان من رقاع - من جلد - فقال: [ما هذا الذى

وسطهن؟] قُلتُ: فرس. فقال - ﷺ - : [فرس له جناحان؟]
قلتُ: أما سمعت أن لسليمان - عليه السلام - خيلاً لها أجنحة؟
قالت: فضحك - ﷺ - حتى رأيتُ نواجذه - أى: حتى رأيت بعض أنيابه - وتقول: قال لى رسول الله - ﷺ - مرة: [إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى] فقلت: يا رسول الله، ومن أين تعرف ذلك؟ قال: [أمَّا إذا كُنت عنى راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم]
قالت: فقلتُ أجَلْ والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك - أى: وأمَّا ذاتُكَ يارسول الله فهى معى دائماً حيثما كنت . . .

وهكذا بدأت عائشة - رضى الله عنها - حياتها الزوجية مع رسول الله - ﷺ - فوجدت فيها كل ما يسعدها من فرح وسرور، ومن ابتهاج وحبور، ومن ممازحات لطيفة، ومن عبارات رقيقة، ومن بشارات عظيمة، ومن معاملة كريمة زادتها قوةً فى إيمانها، وسمواً فى سلوكها، وشجاعة فى النطق بكلمة الحق، وعلماً نافعاً بأمور دينها، وبشئون دنياها.

وبمرور الأيام ازدادت عائشة - رضى الله عنها - إحساساً وشعوراً بسمو الرسالة التى جاء بها زوجها رسول الله - ﷺ - وبثقل الوظيفة التى كلفه بأدائها خالقه - عز وجل - فوقفت إلى جانبه - ﷺ - تدافع عنه، وتزداد قرباً منه، وتحفظ عنه ما ينطق به من أقوال، وتسأل

عما خفى عليها من أحكام، وتشرح للنساء ما يستحى رسول الله ـ ﷺ ـ من توضيحه وبيانه ...

جاء في الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن امرأة سألت النبى ـ ﷺ ـ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل وقال: [خذى فِرْصَةً ـ أى : قطعة من صوف أو قطن ـ فاغمسيها فى المسك فتطهرى بها]. فقالت: كيف أتطهر بها؟ فقال ـ ﷺ ـ : [سبحان الله، تطهرى].

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : فاجتذبتها إلىّ فقلت لها : تتبعى بها أثر الدم .

ولقد تعرضت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لمحنة أليمة كان لها أثرها الشديد الحزن فى نفسها، وكان ذلك فى أعقاب غزوة بنى المُصْطَلِق فى حوالى السنة السادسة من الهجرة، فقد أشاع المنافقون عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما هى بريئة منه، عندما تخلفت عن الجيش بسبب فقدها لعقْد لها فأخذت فى البحث عنه، وسار الجيش وتركها، فعرفها أحد الصحابة وحملها على راحلته وعاد بها إلى المدينة ...

ولكن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبىّ بن سلول ومن كان على شاكلته فى النفاق، أخذوا يشيعون الفاحشة حول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ واهتزت المدينة المنورة لهذه المحنة الأليمة ...

وأخيراً نزلت بضع عشرة آية فى سورة « النور » تبرئ السيدة عائشة مما افتراه عنها المفترون ، وما تفوه به المنافقون والحاقدون ...

وافتتحت هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)

واختتمت بلعنة المنافقين والكاذبين، وبشهادة من الله ـ تعالى ـ للسيدة عائشة بالبراءة والطهارة، حيث قال ـ سبحانه ـ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢)

---

١ ـ سورة النور . الآية : ١١ .

٢ ـ سورة النور . الآيات : ٢٣ ـ ٢٦ .

وعاشت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ بعد ذلك تتلقى العلم عن رسول الله ـ ﷺ ـ وتنشره ، وكانت ممن أعطاهن الله ـ تعالى ـ العقل الثاقب ، والرأى السديد ، والفقه السليم فى أمور الدين والدنيا . . .

لقد روت عن النبى ـ ﷺ ـ أكثر من ألفى حديث فى موضوعات شتى تتعلق بالعقائد والآداب والعبادات والأحكام الشرعية المتنوعة .

قال عنها الإمام الزهرى ـ رحمه الله ـ : « لو جمع علم عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل » .

وكانت ـ رضى الله عنها ـ تفتى فى عهد عمر وعثمان ، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يرسلون إليها ليسألوها فى أمور معينة .

وكانت لا تكتفى بالإفتاء وبتفسير الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، بل كانت تُصحح وتُعلق على ما جاء على ألسنة بعض الصحابة .

ومن ذلك ما جاء فى صحيح البخارى عن أبى موسى قال : « لما أُصيب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جعل صُهَيب يقول : وا أخاه ، فقال له عمر : أما علمت أن النبى ـ ﷺ ـ قال :[إن الميت ليُعذب ببكاء الحى] » .

وفى رواية أنه قال : [إن الميت يُعذَّب ببعض بكاء أهله عليه] .

وذكر ذلك لعائشة فقالت : « رحم الله عمر، والله ما حدَّث رسول الله - ﷺ - بذلك، ولكن قال : [إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه] . ثم قالت : حسبكم القرآن :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [1] .

وكانت - رضى الله عنها - إلى جانب فقهها بالأحكام الشرعية، ذواقة للأدب العربي : شعره ونثره، سريعة الاستشهاد به فيما يمر بها من أحداث . . .

فعندما رأت أباها أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - فى مرضه الأخير وهو يودع الدنيا قالت :

لَعمرُكَ ما يغنى الثراءُ عن الفتى

إذا حَشْرَجتْ يوماً وضاق بها الصَدرُ

وعندما استشهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قالت :

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النَّوى .•. كما قرَّ عينا بالإياب المسافرُ

وعندما قُتل أخوها محمد بن أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت :

وكنا كندمانَىْ جَزيمةَ حقْبةً .•. من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فلما تفرَّقنا كأنّى ومالكاً .•. لطول اجتماع لم نبتْ ليلةً معاً

١ - سورة : الأنعام : ١٦٤، الإسراء : ١٥، فاطر : ١٨، الزمر : ٧ .

قال في شأنها ابن أختها عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - : مارأيت أحداً أعلم بطب ولا بفقه ولا بشعر من عائشة .

ولقد سمع عمار بن ياسر - رضى الله عنهما - أحدَ المنافقين يذكر عائشة - رضى الله عنها - بكلام سئ، فقال له : اسكت مَقبوحاً مَنبوحاً، أتقع فى حبيبة رسول الله - ﷺ - ؟ إنها لزوجته فى الجنة .

لقد عاشت - رضى الله عنها - لتكون المرجع الأول من النساء فى علوم القرآن والسُّنة بعد وفاة رسول الله - ﷺ - ثم تُوفيت وهى فى السادسة والستين من عمرها، وكانت وفاتها - على الأرجح - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من شهر رمضان سنة سبع وخمسين للهجرة، ودُفنت بالبقيع مع أخواتها من أمهات المؤمنين اللائى سبقنها للقاء الله، وكانت قد أوصت فى حياتها بأن تُدفن معهن - فرضى الله عنهن جميعاً -

٤ ـ أم المؤمنين
حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنها ـ

هى أم المؤمنين حـفـصــة بنت عـمـر بن الخطاب بن نُفَـيل بن عبدالعزي بن رَباح بن عبد الله بن قُرْط بن كعب بن قريش، وكان عـمـر ـ رضى الله عنه ـ يُكنىَ بأبى حـفص، وهو ثانى الخلفـاء الراشدين .

وقد مدحه النبى ـ ﷺ ـ مدحًا عظيمًا، ومن ذلك قوله ـ ﷺ ـ : [يابن الخطاب، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فَجًا ـ أى : طريقًا ـ قط، إلا وسلكَ فجًا غير فجك] .

وقوله ـ ﷺ ـ : [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه] .

وأم حفصة : هى السيدة زينب بنت مَظعون بن حَبيب بن وَهْب ابن حُذافة بن جُمَح ...

وكانت ولادة السيدة حفصة ـ رضى الله عنها ـ فى السنة الخامسة قبل بعثة النبى ـ ﷺ ـ وقيل فى السنة السابعة .

وعندما أسلم سـيدنا عـمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ تبعه فى إسلامه أهل بيته ومنْ بينهم حفصة ...

٨

وكان لإسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ أثر طيب فى نفوس من أسلموا قبله، لدرجة أن بعض المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من أذى المشركين، عندما بلغهم الخبر عادوا من الحبشة إلى مكة .

وتزوجت السيدة حفصة ـ رضى الله عنها ـ بصحابى جليل كان من السابقين إلى الإسلام، وكان من أصحاب الهجرتين إلى الحبشة، وهو : خُنَيس بن حُذافة بن قيس بن عَدى السَّهمى القُرشى . . .

وعاشت السيدة حفصة مع زوجها الذى كانت تحبه ويحبها، إلا أن زوجها ـ رضى الله عنه ـ توفى بعد غزوة بدر بعد أن شارك فيها، وقيل كانت وفاته بعد غزوة أحد إثر إصابته بجراحة فيها، وكان عُمْر حفصة عند وفاة زوجها « خُنَيس » ثمانية عشر عاماً .

وتأثرت السيدة حفصة لوفاة زوجها تأثرا شديداً، ورأى والدها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن يخفف من آلامها، ففاتح سيدنا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ فى الزواج بها، إلا أن أبا بكر لم يعط لعمر كلمة قاطعة فى هذا الأمر . . .

ثم فاتح عمر ـ رضى الله عنه ـ عثمان بن عفان فى الزواج بحفصة، بعد أن توفيت زوجه رقية فى أعقاب غزوة بدر، إلا أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال لعمر : سأنظر فى أمرى، ثم عاد إليه بعد أيام فقال له : قد بَدا لى ألا أتزوجَ فى يومى هذا .

وقصَّ عمر - رضى الله عنه - ما قاله لأبى بكر وعثمان فى شأن ابنته حفصة على النبى - ﷺ - فقال له - ﷺ - : [يتزوجُ حفصةَ مَن هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة] . وكان - ﷺ - يقصد بقوله هذا ، أنه - ﷺ - هو الذى سيتزوج بحفصة ، وأن عثمان سيتزوج بأم كلثوم ابنته - ﷺ - بعد وفاة شقيقتها رقية التى كانت زوجة لعثمان . . .

والتقى بعد ذلك أبو بكر بعمر - رضى الله عنهما - فقال له معتذراً : ياعمر ، لعلك وَجدتَ علىَّ - أى : ظننت بى ما أحزنك - حين عرضتَ علىَّ الزواج بابنتك حفصة ، فلم أردَّ عليك بلا أو بنعم ، فاعذرنى فإنى كنت قد علمت أن رسول الله - ﷺ - قد ذكر ابنتك حفصة ، ولم أكن لأفشىَ لرسول الله - ﷺ - سراً ، ولو تركها رسول الله - ﷺ - لتزوجتها .

وتزوج الرسول - ﷺ - بالسيدة « حفصة بنت عمر » فى شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة - على الأرجح - وأَصْدَقها - ﷺ - بأربعمائة درهم .

وعاشت السيدة حفصة فى بيت النبوة ، وكانت ذكية عاقلة ، تعلمت القراءة والكتابة على يد صحابية جليلة هى السيدة « الشفاء بنت عبد الله » وقد شجعها الرسول - ﷺ - على ذلك . . .

ودخلت السيدة حفصة بيت النبوة، وكانت قد سبقتها إليه السيدة سودة بنت زمعة، والسيدة عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - وتقارب فكر حفصة مع فكر عائشة - رضى الله عنهما -

وكان عمر بن الخطاب، وهو صاحب الفراسة الثاقبة، والإلهامات السديدة، يلتقى بابنته حفصة، فيزودها بالتوجيهات الحكيمة، ويحذرها من أن تقول قولاً، أو تفعل فعلاً يُخالف ما يحبه رسول الله - ﷺ - ....

وبلغه يوماً أن ابنته حفصة راجعت النبى - ﷺ - فغضب وذهب إليها وقال لها بحدة : يا حفصة، تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله ... » .

إلا أن السيدة حفصة - رضى الله عنها - وهى ابنة عمر - كانت تعتز بشخصيتها، وتحب أن تترك نفسها على سجيتها دون تكلف، وأن تسأل عما تريد السؤال عنه دون تردد ...

جاء فى الحديث الصحيح الذى ذكره الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله عن أم مُبشّر الأنصارية، أنها سمعت رسول الله - ﷺ - عند السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهو يذكر بالخير أصحابه الذين بايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة فى صلح الحديبية فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة، فقال فى شأنهم : « لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها ... » .

فقالت حفصة : بلى يا رسول الله ، وتلت الآية الكريمة :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1]

فقال لها ـ ﷺ ـ : قد قال الله ـ عز وجل ـ بعد هذه الآية :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[2]

ومن الأحداث التى سجلها القرآن الكريم بالنسبة للسيدة حفصة وللسيدة عائشة ـ رضى الله عنهما ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ كان قد تعود أن يشرب عسلاً عند السيدة زينب بنت جحش، ويمكث عندها بعض الوقت، فاتفقت عائشة مع حفصة أن تقول إحداهما له عندما يدخل عليها : يا رسول الله، أكلتَ مغافير ؟ والمغافير شراب حلو له رائحة كريهة . . .

ويبدو أن الرسول ـ ﷺ ـ دخل بعد ذلك على حفصة فقالت له : يا رسول الله، هل أكلت مغافير ؟ فقال لها : [لا، بل شربت عسلاً عند زينب، ولن أعود إليه، وقد حلفتُ فلا تخبرى بذلك أحداً] ولكنها ـ رضى الله عنها ـ أخبرت السيدة عائشة بذلك .

فنزل قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . . ﴾ من الطعام والشراب .

---

١ ـ سورة مريم . الآية : ٧١ .   ٢ ـ سورة مريم . الآية : ٧٢ .

﴿ ... تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ... ﴾ عائشة وحفصة .

﴿ ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) واسع المغفرة والرحمة .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ... ﴾

أى : شرع لكم تحليل الأيمان التى عقدتموها عن طريق عتق رقبة أو الإطعام أو الصيام .

﴿ ... وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ... ﴾

أى : ناصركم ومتولى أموركم .

﴿ ... وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(٢)

أى : وهو العليم بأحوالكم، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ... ﴾ وهى حفصة

﴿ ... حَدِيثًا ... ﴾ وقال لها لا تُخبرى أحداً .

﴿ ... فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ... ﴾

أى : فحين أخبرت حفصةُ عائشةَ بهذا الحديث الذى أمرها الرسول بكتمانه، وأعلمه الله بما قالته حفصة لعائشة ...

---

١ - سورة التحريم . الآية : ١ .

٢ - سورة التحريم . الآية : ٢ .

﴿ ... عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ... ﴾

أى : اكتفى - ﷺ - بالإشارة إلى جانب مما قالته حفصة لعائشة - رضى الله عنهما -

﴿ ... فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ... ﴾

أى : فحين أخبر الرسول - ﷺ - حفصة بجانب من حديثها مع عائشة فى هذا الشأن ، قالت حفصة للرسول - ﷺ -: يا رسول الله ، من أخبرك بما دار بينى وبين عائشة ؟ فكان جوابه - ﷺ - :

﴿ ... قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1]

أى : أخبرنى بذلك الله - تعالى - العليم بكل شئ ، الخبير بما تكنه القلوب .

ثم وجه - سبحانه - خطابه إلى حفصة وعائشة ، فأمرهما بالتوبة عما صدر منهما فقال :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ... ﴾ .

أى : إن تتوبا إلى الله فلتوبتكما موجب أو سبب فقد مالت قلوبكما عن الحق .

﴿ ... وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ... ﴾

أى : وإن تتعاونا على الرسول - ﷺ - بما يزعجه ويشغله .

---

١ - سورة التحريم . الآية : ٣ .

﴿ ... فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (١)

أى : وإن تتعاونا على ما لا يرضيه فإن الله ناصره عليكما، وكذلك جبريل ناصره، وكذلك الصالحون من المؤمنين هم أنصاره وأعوانه، والملائكة بعد كل ذلك نصراؤه وأعوانه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتكريم الرسول - ﷺ - وبتهديد من يقول قولاً أو يفعل فعلاً لا يرضى عنه - ﷺ - .

فقال :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (٢)

أى : عسى إن طلقكن رسولنا محمد - ﷺ - بإذن ربه ومشيئته، أن يبدله - سبحانه - أزواجاً خيراً منكن، لأنهن مطيعات لله، ومصدقات بقلوبهن، ومداومات على الطاعة، ومقلعات عن الآثام، ومقبلات على عبادة الله - تعالى - وسائحات وذاهبات فى طاعة الله - تعالى - كل مذهب، ومنهن من سبق زواجها من غيره - ﷺ - ومنهن الأبكار اللائى لم يسبق لهن الزواج .

---

١ - سورة التحريم . الآيات : ٤ .   ٢ - سورة التحريم . الآيات : ٥ .

وهذه الآيات الكريمة العتاب فيها للسيدة حفصة ـ رضى الله عنها ـ أكثر من العتاب لغيرها، لأنها وهى التقية العابدة الصوامة القوامة هى التى قالت لعائشة كلاماً أمرها ـ ﷺ ـ بكتمانه، ولعلها ـ رضى الله عنها ـ قد فعلت ذلك سهواً ظناً منها أن ما فعلته من الأمور العادية ...

وعلى أية حال فهذه الآيات الكريمة فيها ما فيها من التكريم للرسول ـ ﷺ ـ ومن التحذير لأمهات المؤمنين من أن يتصرفن أى تصرف أو يقلن أى قول لا يرغب فيه النبى ـ ﷺ ـ ولا يميل إليه، وفيها ما فيها ـ أيضاً ـ من تعليم المؤمنين والمؤمنات ـ فى كل زمان ومكان ـ كيف تكون العلاقة الطيبة بين الرجال والنساء، وبين الأزواج والزوجات .

ولقد عاشت السيدة حفصة ـ رضى الله عنها ـ بعد ذلك فى بيت النبوة تنهل من خيره، وتتعلم من توجيهات رسول الله ـ ﷺ ـ وتنفذ ما يكلفها به، وكانت كما وصفها جبريل ـ عليه السلام ـ للنبى ـ ﷺ ـ صوامة قوامة، وروت عن النبى ـ ﷺ ـ كثيراً من الأحاديث التى معظمها يخص المرأة وحياتها، وعلاقتها بزوجها وبأسرتها ...

وكانت لها مكانة عالية، ومنزلة سامية بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ ويكفيها شرفاً أن كبار الصحابة رضوا أن تنتقل نسخة القرآن

المجموعة في عهد أبي بكر من دار أبيها عمر بن الخطاب إلى دارها التي تسكن فيها مع النبي ـ ﷺ ـ وأن تبقى عندها محفوظة مصونة إلى أن طلبها منها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وقال لها : أرسلي إلينا بالصحف ننسخها ، فأرسلتها إليه ، فكتب منها المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار ، ثم ردَّ إليها بعد ذلك ما أخذه منها .

وكان أبوها عمر ـ رضي الله عنه ـ يرجع إليها في أخص الأمور التي تتعلق بالنساء .

وفي شهر شعبان من السنة الخامسة والأربعين ـ على أرجح الأقوال ـ توفيت السيدة حفصة ـ رضي الله عنها ـ ولها من العمر قرابة الثلاثة والستين عاماً ، ودفنت بالبقيع مع من سبقها من أمهات المؤمنين .

---

٥ - أم المؤمنين
زينب بنت خزيمة - رضي الله عنها -

وفى السنة الثالثة للهجرة وبعد زواجه - ﷺ - بالسيدة حفصة، تزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ... وأمها : هند بنت عوف بن الحارث ...

وكانت ولادة زينب بنت خزيمة بمكة قبل بعثة النبى - ﷺ - وعندما بلغت سن الزواج تزوجها الصحابى الجليل الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم النبى - ﷺ - ثم انفصلت عنه، فتزوجها من بعده أخوه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، الذى استشهد فى غزوة بدر ...

وقد تزوجها النبى - ﷺ - فى شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة، قبيل غزوة « أحد » وعاشت - رضى الله عنها - زوجة للنبى - ﷺ - فترة قصيرة حددها بعض المؤرخين بثمانية أشهر ...

وكانت - رضى الله عنها - سخية كريمة، حتى لُقبت بأم المساكين: لرحمتها بهم، ورقتها عليهم، وإطعامها لهم.

وكانت وفاتها فى شهر ربيع الثانى من السنة الرابعة للهجرة، وكان سنها وقت وفاتها ثلاثين سنة، وصلى عليها رسول الله - ﷺ - وكانت أول من دفن بالبقيع من أمهات المؤمنين، كما كانت ثانى

زوجة توفيت فى حياته ـ ﷺ ـ وأول زوجة هى خديجة التى دفنت بمكة .

ونظراً لقصر المدة التى قضتها السيدة زينب بنت خزيمة زوجة للنبى ـ ﷺ ـ ونظراً لانصرافها فى خدمة الفقراء والمساكين، كان حديث المؤرخين عنها محدوداً، وكفاها شرفاً أنها من أمهات المؤمنين .

٦ ـ أم المؤمنين
أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ

إذا كـان الحـديث عن جـمـيع أمهـات المؤمنين له أثره الطيب فى النفوس ... فإن الحديث ـ بصفة خاصة ـ عن السيدة أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ له أثره الذى يجمع بين : الإيمان العميق، والصبر الجميل، والوفاء النادر، والعزة الشامخة، والعقل المستنير، والحكمة البالغة ...

والسيدة أم سلمة اسمها : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم ...

وقد لقب أبوها فى الجاهلية بلقب « زاد الركب » لأنه كان إذا سافر ومعه عدد من الناس يتولى هو تقديم الزاد والطعام إليهم طوال أيام السفر، وكان إلى جانب ذلك أحد زعماء مكة المشهورين، وكرمائهم المعدودين ...

وأمها : هى عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية ...

نشأت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فى بيت يمتاز بالعز والكرم وبالسعة فى المال وفى النسب العريق ...

وعندما بلغت أم سلمة سن الزواج، تزوجها الصحابى الجليل عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ... وأم زوجها هى بُرَّة بنت عبد المطلب عمة النبى - ﷺ - وكان زوجها عبد الله بن عبد الأسد أخًا للنبى - ﷺ - من الرضاعة ...

وعندما بعث الله - تعالى - نبيه محمداً - ﷺ - رحمة للعالمين، بادر عبد الله وزوجه هند - أم سلمة - إلى الدخول فى الإسلام، فكانا من السابقين إليه، وكانا من أوائل المهاجرين إلى بلاد الحبشة، بعد أن أذن لهم النبى - ﷺ - فى الهجرة إلى تلك البلاد، فرارًا بدينهم ومن أذى قومهم المشركين ...

وكان مما قاله النبى - ﷺ - لهم بعد أن أشتد بهم أذى المشركين: [لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلكًا لا يُظلم عنده أحد] .

وكانت أم سلمة وزوجها عبد الله ممن قَدِمَ إلى مكة بعد أن بلغهم أن أذى المشركين للمسلمين قد زال، وعند رجوع زوجها عبد الله إلى مكة لم يتمكن من الدخول إلا فى جوار خاله أبى طالب بن عبدالمطلب ...

وبعد عودة أم سلمة وزوجها إلى مكة بفترة قليلة، توفى أبوطالب عم رسول الله - ﷺ - ونصيره، فعاد مشركو مكة لاضطهاد المسلمين، وخاصة من كانوا فى جوار أبى طالب وفى حمايته ...

فكان من حرص الرسول - ﷺ - عليهم، أن أذن لهم فى الهجرة

من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وكان عبد الله - زوج السيدة أم سلمة - من أوائل من هاجر إليها ...

وتحكى السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - بأسلوب مؤثر قصة هجرتهما فتقول - كما جاء في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٧٧ - : «لمّا أجمعَ أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَل لى بعَيرَه ثم حملنى عليه، وحمل معى ابنى سلمة، ثم خرج يقود بى بعيره، فلما رآه رجال قومى - أى : أقاربها - قاموا إليه وقالوا له بغضب : هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه - أى : زوجته أم سلمة - كيف نتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذونى منه، فغضب عند ذلك أقارب زوجى أبى سلمة، وقالوا : ونحن لا نترك ابننا عندها مادمتم قد نزعتموها من صاحبنا !!

قالت - رضى الله عنها - : وتجاذب أقارب زوجى وأقاربى ابنى سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به أقارب أبيه، وحبسنى أقاربى عندهم...

قالت : وانطلق زوجى أبو سلمة مهاجراً إلى المدينة، قالت : وفُرِّقَ بينى وبين زوجى وابنى، فكنت أخرج كل صباح وأجلس بالأبطح - وهو مكان متسع بمكة - فما أزال أبكى حتى أُمْسى سَنَةً أو قريباً منها، قالت : حتى مرَّ بى رجل من بنى عمى فرأى ما بى ،

فرحمني، وقال لبني المغيرة : ألا تُخرجُون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها !! ومازال بهم حتى قالوا : الحقي بزوجك إن شئت ...

قالت : ورد إليَّ أقارب زوجي ابني سلمة، فركبتُ بعيرى، ووضعت ابنى سلمة فى حجرى، ثم خرجت متجهة من مكة إلى المدينة أريد زوجى، وما معى أحد من خلق الله ...

قالت : - رضي الله عنها - : حتى إذا كنتُ بالتنعيم - مكان قريب من مكة - لقيتُ عثمان بن طلحة - وكان مازال على دين قومه - فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة، فقال : هل مَعكَ أحَد؟ فقلت : لا والله ما معى إلا الله وابنى هذا !! فقال : والله مالَكِ من مَتْرَك !!

قالت : وأخذ عثمان بن طلحة بخطام بعيرى فانطلق معي يقودنى إلى المدينة، فو الله ما صحبتُ رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه، كان إذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى وابتعد عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح - أى : فإذا قرب وقت مواصلة السفر - قام إلي بعيرى فقدَّمه ورحَّله، ثم استأخر عنى وقال : اركبى فإذا ركبت واستويت على بعيرى، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ...

قالت : فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى إلى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء - وكان بها منزل أبى سلمة بعد

أن هاجر إلى المدينة - قال لى عثمان بن طلحة : إن زوجك فى هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة . . . ».

قال ابن هشام فى سيرته : فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة .

وكذلك كان زوجها أبو سلمة، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله - ﷺ - .

وعاشت السيدة أم سلمة مع زوجها أبى سلمة عيشة كلها المحبة والمودة والرحمة فيما بينهما كزوجين، عيشة كلها التعب والمشقة والأذى من أعداء الإسلام، وصدقت - رضى الله عنها - عندما قالت : « والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة » .

وعاش زوجها بعد هجرة النبى - ﷺ - إلى المدينة المنورة، عاش مجاهداً شجاعاً مخلصاً، باع نفسه لخدمة الحق الذى جاء به رسول الله - ﷺ - من عند ربه . . .

وكان أبو سلمة - رضى الله عنه - محل ثقة النبى - ﷺ - فعندما خرج - ﷺ - إلى غزوة ذى العشيرة فى شهر جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، اختار أبا سلمة فاستعمله على المدينة المنورة . ثم جاءت غزوة بدر فى رمضان فى السنة الثانية للهجرة - أيضاً -

فشارك فيها أبو سلمة وجاهد جهاد الأبطال، ثم جاءت غزوة أُحُد في شوال من السنة الثالثة فشارك فيها - أيضاً - وقاتل قتال المجاهدين المخلصين الشجعان، وأصيب خلال مشاركته في القتال بسهم في عضده، ظل يداويه حتى ظن أنه التأم ...

ثم اختاره - ﷺ - لقيادة سَرِيَة من مائة وخمسين صحابياً، كان من بين أفرادها اثنان من كبار الصحابة المُبشرين بالجنة وهما : سعد ابن أبي وقاص، وأبي عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله عنهما -

وأدت هذه السَرِيَة بقيادة أبي سلمة - رضي الله عنه - على خير وجه، وأعادت هيبة المسلمين بعد ما حدث لهم في غزوة « أُحد » .

وفي أعقاب هذه السرية انفجر الجُرح الذي أصيب به هذا الصحابي الجليل، ولحق بربه في شهر جمادى الثاني سنة أربع للهجرة .

وخلال مرضه - رضي الله عنه - كان الرسول - ﷺ - يتردد عليه، وفي اللحظات الأخيرة من حياته، بقي - ﷺ - إلى جواره حتى فارق الحياة، فأسبل - ﷺ - بيديه الكريمتين عينيه، وصلى عليه صلاة الجنازة، وكبر عليه تسع تكبيرات، فقيل له : يا رسول الله، أسهوتَ أم نسيت ؟

فقال - ﷺ - بتأثر وحزن : [لم أسْهُ ولم أنْسَ، ولو كبّرت على أبي سلمة ألف مرة، كان أهلاً لذلك] .

وحزنت أم سلمة حُزنـاً شديداً لوفاة زوجها أبى سلمة الذى ربط الحب بينهمـا برباط وثيق لا يعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ـ وقالت كلاماً مؤثراً يدل على وفائها الشديد له . . .

قالت من بين ما قالت : غريب مات فى أرض غربة ، والله لأبكينه بكاء يتحدث الناس عنه ، قالت : وتذكرتُ حديث رسول الله ـ ﷺ ـ الذى يقول فيه : [ما من عبد يُصاب بمصيبة فيفزع إلى الله ـ تعالى ـ فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها إلا آجره الله فى مصيبته ، وكان قديراً أن يعوضه الله خيراً منها] .

تقول ـ رضى الله عنها ـ فكنت أقول ذلك ، وكان لسانى أحياناً لايطاوعنى أن أقول : وعوضنى خيراً منها ، لأنى كنت لا أرى مَنْ هو خير من أبى سلمة .

وكان زوجها أبو سلمة يبادلها هذا الحب النقى الطاهر ، فكثيراً ماكان يُردد وهو فى مرضه الأخير : « اللهم ارزق أم سلمة من بعدى رجلاً خيراً منى ، لا يحزنها ولايؤذيها » .

وعزفت ـ رضى الله عنها ـ عن الزواج ، وردت فى رفق أبا بكر ثم عمر . . . ، وآثرت أن تتفرغ لتربية أولادها الأربعة من زوجها الراحل وهم : سلمة ، وعمر ، وزينب ، ودُرة .

ورق النبى - ﷺ - لحالها، وأبى كرمه - ﷺ - أن يتركها تتحمل أعباء تربية هؤلاء الصغار، فأرسل بعض أصحابه ليخطبها له، فاعتذرت بأدب، وقالت: لقد كبر سني، وذات أولاد صغار، وتصيبني الغَيْـرة!! فردَّ الرسول - ﷺ - عليها بقوله: [أما السن فأنا أكبر منك سنًا، وأما الأولاد الصغار فإلى الله ورسوله رعايتهم، وأما الغَيْـرة فأدعو الله أن يصرفها عنك] .

وأخيراً تم زواج السيدة العزيزة الجميلة أم سلمة، ممن هو خير من زوجها أبى سلمة، ألا وهو سيد الخلق رسول الله - ﷺ - ودخلت بيتها الجديد الذى كانت تسكنه من قبلها أم المساكين زينب بنت خزيمة التى توفيت منذ شهور قليلة ...

وعاشت أم سلمة - رضى الله عنها - في بيت النبوة أُماً للمؤمنين، تتعلم وتنهل من توجيهات رسول الله - ﷺ - ومن أحاديثه ومن أخباره، وقد ذكر الإمام الذهبى أن السيدة أم سلمة روت عن النبى - ﷺ - أكثر من ثلاثمائة حديث، وكانت لها - رضى الله عنها - شخصيتها المتميزة، وآراؤها السديدة، وعاطفتها الرقيقة.

عندما بلغ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن أزواج النبى - ﷺ - يراجعنه فى بعض الأمور حتى يظل - ﷺ - يومه غضبان، سارع إلى ابنته حفصة - رضى الله عنها - وحذرها من ذلك تحذيراً شديداً ...

ثم ذهب إلى السيدة أم سلمة - وكان بينه وبينها قرابة - فكلمها فى ذلك، فقالت له بشجاعة: « عجباً لك يابن الخطاب!! قد دخلت فى كل شئ، حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله - ﷺ - وأزواجه؟!!» .

قال عمر - رضى الله عنه - : « فأخذتنى أم سلمة والله أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد ... » .

وعندما كانت فى صحبة رسول الله - ﷺ - فى صلح الحديبية، وأمر رسول الله - ﷺ - أصحابه بنحر الهَدى، فترددوا لشعورهم بأن شروط هذا الصلح مُجحفة، وغضب رسول الله - ﷺ - من هذا التردد، ودخل على أم سلمة وذكر لها ما حدث من الناس ...

قالت له: يا رسول الله، اخرج إلى الناس دون أن تكلمهم وانحر هديك، وادع حالقك ليحلق لك، فإن الناس إذا رأوك قد فعلت ذلك فعلوا مثلك، فلما فعل - ﷺ - ما أشارت به عليه أم سلمة - رضى الله عنها - ما كان من الصحابة إلا أن سارعوا إلى نحر هديهم وتبادلوا الحلق فيما بينهم .

وحجت - رضى الله عنها - مع رسول الله - ﷺ - حجة الوداع، وصحبته فى غزوة خيبر، وفى فتح مكة، وفى حصار الطائف، وفى غزو هوازن والطائف ...

وعندما دخلت فاطمة الزهراء مع ولديها الحسن والحسين، وقال لهم الرسول - ﷺ - مرحباً بكم أهل البيت، بكت أم سلمة وكانت حاضرة، فنظر إليها - ﷺ - وسألها في رفق: مايُبكيك؟ فأجابت: يارسول الله، خصصتهم، وتركتني وابنتي، فقال - ﷺ -: [إنك وابنتك من أهل البيت].

وقد بارك الله - تعالى - في عُمْر أم سلمة - رضى الله عنها - حتى بلغت الرابعة والثمانين، وتُوفيت سنة تسع وخمسين من الهجرة، وكانت آخر أُمهات المؤمنين موتاً، ودفنت مع أخواتها من أمهات المؤمنين بالبقيع - رضى الله عنها وأرضاها -

---

٧ - أم المؤمنين
زينب بنت جحش - رضي الله عنها -

عندما نتحدث عن أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - إنما نتحدث عن امرأة حسيبة نسيبة أنزل الله - تعالى - فى شأنها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة . . .

وهى زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غَنْم بن أسد بن خزيمة . . .

وأمها هى أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف . . .

فزينب - رضى الله عنها - هى ابنة عمة النبى - ﷺ - وحفيدة عبدالمطلب بن هاشم جد النبى - ﷺ -

وقد نشأت زينب فى هذه الأسرة الكريمة، وقد رزقها الله - تعالى - قسطاً من الجمال ومن حسن الهيئة، ومن جودة التصرف، لا سيما فى الشئون المنزلية التى تتعلق بالمأكل والمشرب وغيرهما، ولم تكن فى يوم من الأيام خافية على النبى - ﷺ - باعتبارها ابنة عمته، وممن آمنت برسالته - ﷺ - بعد أن أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

ويبدو أنها عندما بلغت سن الزواج خطبها بعض الرجال من قريش، فاستشارت النبى - ﷺ - فى ذلك فاختار لها النبى - ﷺ - الصحابى الجليل زيد بن حارثة - رضى الله عنه -

وزيد بن حارثة له قصة طويلة ملخصها : أنه ينتسب إلى أسرة عربية قحطانية، خرجت به أمه لزيارة أهلها وهو في سن الصبا، فأسره بعض أهل الظلم، وباعوه في الأسواق، وكان الذى اشتراه في الجاهلية حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة بنت خويلد التي بعد زواجها بالنبى - ﷺ - وهبته له - ﷺ - فكان أهل مكة يقولون : زيد بن محمد . . .

وعندما أكرم الله - عز وجل - نبيه محمداً بالرسالة، كان زيد بن حارثة من أوائل الذين سارعوا إلى الدخول في الإسلام، وظل الناس يقولون : زيد بن محمد، إلى أن نزل قوله - تعالى - : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ .

ففى الصحيحين - البخارى ومسلم - عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن حارثة، مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا نناديه وندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . . ﴾ . أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء الذين انتسبوا إليكم بالتبنى، انسبوهم إلى آبائهم الحقيقيين، فإن نسبتهم إلى آبائهم الحقيقيين هو الأعدل والأحق والأشرف للآباء والأبناء .

وقد اختار النبى - ﷺ - لزيد بن حارثة - بعد أن أعتقه وأكرمه - الزواج من السيدة زينب بنت جحش، إلا أنها كرهت ذلك، وشعرت - وهى ذات الحسب والنسب والجمال - أنها أكبر من أن تتزوج بإنسان ليس بقرشى، وأنه لا يساويها فيما تعارف عليه الناس .

وخلال ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾(١)

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ لزيد بن حارثة، فاستنكفت وقالت: أنا خير منه حسباً، فأنزل الله هذه الآية.

وفى رواية أنها ـ رضى الله عنها ـ بعد أن علمت بنزول هذه الآية قالت: يا رسول الله، هل رضيته لى زوجاً؟ فقال لها النبى ـ ﷺ ـ: [نعم] فقالت: وأنا لا أعصى لرسول الله ـ ﷺ ـ أمراً، قد رضيته لنفسى زوجاً.

وفى رواية: أنها بعد أن بلغها نزول هذه الآية الكريمة قالت: «إنى أرسلتُ إلى النبى ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسول الله، إنى أستغفر الله، وأطيع الله ورسوله، افعل يا رسول الله ماتراه ...

قالت: فزوجنى رسول الله ـ ﷺ ـ زيداً فكنت أرزأُ عليه ـ أى: فكنت أضايقه وأترفع عليه ـ فشكانى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فعاتبنى ـ ﷺ ـ ثم عدت فأخذته بلسانى، فشكانى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: [أمسك عليك زوجك واتق الله] فقال زيد: أنا أطلقها. قالت: فطلقنى.

---

١ ـ سورة الأحزاب . الآية : ٣٦ .

وهكذا تم طلاق زيد بن حارثة، للسيدة زينب بنت جحش، بعد زواج يبدو أنه لم يدم طويلاً، لاختلاف متعدد الأسباب نشأ بينهما، وهذا أمر مألوف بين كل زوجين يصعب الإصلاح بينهما . .

وبعد أن انقضت عدَّة السيدة زينب بنت جحش من زيد بن حارثة، تم زواج النبى - ﷺ - بها، وكان زواجه - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فى السنة الخامسة من الهجرة .

وكان زواجه - ﷺ - بها بأمر الله - عز وجل - لكى يبطل - سبحانه - عادة كانت متأصلة بين الناس فى ذلك الوقت، وهى أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج من امرأة سبق لابنه بالتبنى أنه تزوجها، وقد أراد - سبحانه - أن يكون هذا الإبطال لتلك العادة المتأصلة فى النفوس عن طريق زواج النبى - ﷺ - للسيدة زينب بنت جحش، التى سبق لزيد بن حارثة الزواج بها، والذى كان الناس يطلقون عليه زيد بن محمد . . .

ولكى يزداد هذا الإبطال رسوخاً فى النفوس، وتثبيتاً فى القلوب وإزالةً لريب المرتابين، وقطعاً لألسنة المنافقين، أنزل الله - تعالى - فى هذا الشأن قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، فقال - تعالى : -

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ
أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ
سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (١)

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت لزيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، وأنعمتَ أنت عليه بنعمة العتق والحرية : أمسك عليك زوجتك زينب بنت جحش فلا تطلقها، واتق الله فى أمرها، واصبر على ما حدث منها فى حقك . . .

تقول له ذلك - أيها الرسول الكريم - وأنت تُخفى فى نفسك الشئ الذى أظهره الله لك، وهو إلهامك بأن زيداً سيُطلق امرأته زينب، وأنت الذى تتزوجها بأمر ربك - عز وجل -

وتخاف أن يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض عنك : محمد رسول الله - ﷺ - تزوج بزينب التى طلقها زيد الذى كان ابناً له بالتبنى، وكان يجب عليك - أيها الرسول الكريم - أن يكون خوفك من الله - تعالى - وحده، وليس من أقوال هؤلاء المنافقين وأشباههم من ضعاف الإيمان . . .

---

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٣٧ - ٣٨ .

أو المعنى: تقول - أيها الرسول الكريم - لزيد: أمسك عليك زوجك ولا تطلقها واتق الله فيها، وتخفى فى نفسك يا محمد، أن زيداً لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجته زينب، مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك عن طريق شكواه المتكررة منها، وعن طريق معرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة . . .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فقال: ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

أى: فحين قضى زيد حاجته من زينب وطلقها وانقضت عدتها منه، زوجناك إياها بأمرنا وإذننا - أيها الرسول الكريم - وفعلنا ذلك لنمنع الحرج والمشقة والضيق من قلوب المؤمنين الذين يريدون الزواج بالنساء المطلقات من أولادهم بالتبنى، بعد أن قضى هؤلاء الأولاد بالتبنى حاجتهم من هؤلاء النساء، وبعد أن انقضت عدة هؤلاء النساء من هؤلاء الأولاد، وكان أمر الله - تعالى - مفعولاً، دون عائق له أو مانع .

ثم بيَّن - سبحانه - أنه لا حرج ولا لوم ولا مؤاخذة على الرسول - ﷺ - فيما فعله من زواجه بالسيدة زينب بعد أن طلقها زيدُ الذى كان ابناً له بالتبنى ثم أعتقه ونسبه إلى أبيه الحقيقى حارثة، لأن زواجه - ﷺ - من زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة، قد جعله الله - تعالى - سُنة من سننه فى الأمم الماضية وقد أباحه - سبحانه - للأنبياء من قبله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وواقعاً لا محالة .

وبذلك حكم الله - تعالى - بحكمه العادل، أن زواج النبي - ﷺ - من ابنة عمته السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أمر قد أحله الله - تعالى - وأراده؛ حتى يُبطل تلك العادة التى كانت متأصلة فى نفوس الناس، وهى أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج بامرأة سبق لابنه بالتبنى أن تزوجها ثم طلقها . . .

وأراد - سبحانه - أن يجعل هذا الإبطال عن طريق فعل النبى - ﷺ - حتى لا يشك عاقل فى صحة هذا الزواج .

وعاشت السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فى بيت النبوة معززة مكرمة من النبى - ﷺ - وكانت لها المكانة المميزة بين أمهات المؤمنين؛ لأن النبى - ﷺ - قد تزوجها بأمر ربه من فوق سبع سماوات، ونزل فى شأن هذا الزواج قرآن يُتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

ثم نزل القرآن بالحجاب بسببها، ففى الحديث الصحيح عن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - فى يوم زواجه بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قدم طعاماً لبعض أصحابه فأكلوا، ثم تأخر البعض فى الخروج بعد الأكل من الطعام، ثم خرجوا بعد ذلك، قال أنس: فجئت لأخبره - ﷺ - فلما أراد أن يدخل بيته فذهبت أدخل معه، فألقى السِّتر بينى وبينه، ونزلت آية

الحجاب، وهي قوله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ... ﴾[1]

وكان نساء النبي - ﷺ - بعد ذلك لا يذكرنها إلا بالخير، وفيها قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها -: « ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب بنت جحش، وأتقى لله وأصدقُ حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد بذلاً لنفسها في العمل الذى يُتصدَّق به ويُتقرَّب به إلى الله - عز وجل - ».

وذكرتها السيدة أم سلمة، فقالت: « كانت زينب لرسول الله - ﷺ - معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوامة صوامة، صَنَاعاً تدبغ وتخرز، وتتصدق بذلك كله على المساكين ».

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن شداد الليثي: أن رسول الله - ﷺ - قال لعمر بن الخطاب: [إن زينب بنت جحش أوَّاهةٌ] .

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٥٣ .

فقال رجل : يا رسول الله، ما الأوَّاه؟ فقال - ﷺ - : [الأوَّاه : الخاشع المتضرع] ثم تلا - ﷺ - قوله - تعالى -:

﴿ ... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾(١)

وحقًا لقد كانت السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها - تمثل السخاء فى أكرم صوره، وكانت إلى جانب ذلك بما يتعلق بشئون المنزل من طعام وشراب وغيرهما، كانت تصنع بيديها الكثير مما يحتاجه الفقراء والمساكين، ثم توزع ما صنعته عليهم .

وفى الصحيحين من حديث عائشة - رضى الله عنها - : « أن بعض أزواج رسول الله - ﷺ - قُلن: يا رسول الله، أينا أسرع بك لحوقًا؟ قال : [أطولكن يداً ...] فعلمنا بعدُ أنما كانت - زينب - طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقًا بالنبى - ﷺ - وكانت تُحب الصدقة » .

وفى الحديث الصحيح أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أرسل إليها عطاءها اثنى عشر ألفًا، فجعلت تقول: « اللهم لا يدركنى هذا المال فى قابل فإنه فتنة » .

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة دون أن تُبقى منه لنفسها شيئًا .

---

١ - سورة التوبة . الآية : ١١٤ .

وحين حضرتها الوفاة - سنة عشرين من الهجرة - قالت : « إني قد أعددت كفني ، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سيبعث إليَّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما . . . » .

وبعد أن فارقت الحياة للقاء خالقها ، صلى عليها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - ودفنت بالبقيع ، وكانت - رضى الله عنها - أول من مات من أمهات المؤمنين وأسرعهن لحاقًا به .

ولها - رضى الله عنها - أحد عشر حديثًا نبويًا ، روتها عن رسول الله - ﷺ - وروى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش ، وأم المؤمنين أم حبيبة وعدد من كبار التابعين والتابعيات .

٨ ـ أم المؤمنين
جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ

هي بَرَّة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك .. وقبيلتها تنتسب إلى حي من خزاعة، وأبوها زعيم هذه القبيلة التي تسمى بني المُصْطَلِق .

تزوجت برجل من قومها يُدعى مُسَافِع بن صفوان .

وكان زواج النبي ـ ﷺ ـ بها في أعقاب غزوة بني المُصْطَلِق التي كانت ـ على الراجح ـ في أواخر السنة الخامسة من الهجرة، والسبب في هذه الغزوة : أن الرسول ـ ﷺ ـ بلغه أن الحارث بن ضرار ـ والد بَرَّة ـ أخذ يجمع الجموع لحرب المسلمين، وكان هذا الرجل هو وقومه قد ساعدوا المشركين في غزوة « أحد » ...

فلما تأكد النبي ـ ﷺ ـ من إعدادهم العُدة لحرب المسلمين، خرج ـ ﷺ ـ إليهم ومعه ـ ﷺ ـ عدد كبير من أصحابه، وولَّى على المدينة في غيابه الصحابي الجليل زيد بن حارثة ...

والتقى الجمعان بالقرب من ماء يقال له « المُرَيْسِيع » وكان هذا الماء على مقربة من ديار بني المصطلق .ولم يطل هذا اللقاء، فقد حمل المسلمون عليهم حملة قوية شتتت جموع بني المصطلق، وسقط بعضهم قتلى وأسرى، وكان من بين القتلى مسافع بن صفوان، زوج السيدة « برة بنت الحارث » .

وغنم المسلمون في هذه الغزوة غنائم كثيرة، بلغت الآلاف من الإبل والغنم ... وكان منْ بين مَنْ أُخذ في الأسر السيدة برة بنت الحارث...

وعزَّ عليها وهي مَنْ هي في عزها وشرفها، أن ترى قومها وقد ذلوا بعد عز، فما كان منها إلا أن ذهبت إلى رسول الله - ﷺ - وقالت له في ضراعة وحياء: « يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد وقعت في حوزة ثابت بن قيس، فكاتبني على تسع أواق من الذهب، فجئتك أستعينك على أمري ».

وتأثر - ﷺ - لتلك الفتاة التي هي بنت سيد قومها، وكان - ﷺ - يُحب أن يُنزل الناس منازلهم، ويقول لأصحابه: [أكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال].

فقال لها بعد أن استمع إلى حديثها: [وهل لك في خير من ذلك؟].

فقالت له: « وما الذي هو خير من ذلك يا رسول الله ؟! ».

فقال لها: [أَقْضي عنك كتابتك وأتزوجك].

فقالت له: « نعَمْ ما قلت يا رسول الله ».

فقال لها - ﷺ -: [قد فعلت].

وفى رواية : أن والد « برة » بعد أن وقعت فى السَّبْى ، جاء أبوها الحارث بن أبى ضرار ، إلى النبى - ﷺ - وقال له : يامحمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فإن ابنتى لا يُسبى مثلها ، فَخلِّ سبيلها .

فقال له - ﷺ - : [أرأيت إن خيرتها ، أليس قد أحسنت ؟] .

قال : بلى ، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك ، فقالت : اخترت الله ورسوله .

وفى رواية ثالثة : أن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به فى فداء ابنته ، فلما سأله الرسول - ﷺ - عنهما ، قال : أشهد أنك رسول الله حقاً .

فخطب إليه - ﷺ - ابنته ، فزوجه إياها ، وكان صداقها أربعمائة درهم ، وكان عمرها عشرين سنة .

وتم زواج النبى - ﷺ - بهذه السيدة الكريمة المنبت ، وسرى خبر زواجه - ﷺ - بها فى أصحابه الذين شاركوا معه غزوة بنى المصطلق ، وفى جمع الغنائم وفى أسر الرجال وفى سبى النساء ...

فسارعوا إلى إطلاق ما تحت أيديهم من أسرى ومن سبايا ، وقالوا : أصهار رسول الله - ﷺ - لا يصح إلا أن نكرمهم ونتركهم أحراراً ...

فمـا كـان من امرأة أعظم على قـومـهـا بركـة منها : فـقـد أُعـتق بزواجها من رسـول الله ـ ﷺ ـ أهلُ مائة بيتٍ من بيوت قبـيلة بنى المصطلق .

وسمَّاها النبى ـ ﷺ ـ « جويرية » كراهة أن يقال : خرج من عند بـرَّة .

وظلت السيدة « جويرية » ـ رضى الله عنها ـ لم تنس تلك اللحظة السعيدة التى لقيت فيها رسول الله ـ ﷺ ـ والتى شرفت فيها بكونها قد صارت من أمهات المؤمنين ، والتى ترتب عليها أن أعتقت قومها من الأسر والسبى ، بعد أن صاروا أصهاراً لرسول الله ـ ﷺ ـ

وقد ترتب على هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها النبى ـ ﷺ ـ بنى المصطلق ـ وهم حى من خزاعة ، عُرفوا بالشجاعة والعزة ـ

ترتب على كل ذلك أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيـهـم ، وصاروا إخوة للمسلمين بعد أن كانوا أعداء لهم .

وقد كانت « جويرية » ـ رضى الله عنها ـ امرأة تقية نقية ، ذات ذكاء حاد وفراسة ثاقبة ، أقبلت على العبادة والطاعة لله ـ عز وجل ـ ولرسوله ـ ﷺ ـ منذ دخلت فى الإسلام . . .

تقول ـ رضى الله عنها ـ : « رأيت فى المنام قبل قدوم رسول الله ـ ﷺ ـ لغزونا بثلاث ليال ، كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى ، فكرهت أن أُخبر أحداً بذلك ، فلما وقعتُ فى السَّبْى رجوت تحقق الرؤيا ، فأعتقنى رسول الله ـ ﷺ ـ وتزوجى » .

وعاشت - رضى الله عنها - فى بيت النبوة تصوم النهار ، وتقوم الليل .

روت أن رسول الله - ﷺ - خرج من عندها لصلاة الصبح وهى فى مسجد بيتها ، ثم رجع إليهابعد أن أضحى فوجدها فى مسجدها عاكفة ، فقال لها : [أما زلت على الحالة التى تركتك عليها ؟] .

فقالت : نعم . فقال لها : [لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وُزِنَتْ بما قُلته منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنَّ ، وهى : سبحان الله عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته] .

وقد روت عن النبى - ﷺ - عدداً قليلاً من الأحاديث النبوية ، وتوفيت فى خلافة معاوية سنة ست وخمسين ، ودفنت بالبقيع - رضى الله عنها -

٩ - أم المؤمنين
صفية بنت حيي - رضي الله عنها -

وأما السيدة « صفية » فهي ابنة حُيَيِّ بن أخطب ... زعيم يهود بني النضير، وأمها تسمى « برة بنت السموأل » من يهود بني قريظة...

وكانت ولادة السيدة « صفية » - رضي الله عنها - بعد بعثة الرسول - ﷺ - بثلاث سنين تقريباً، ونشأت بين قومها من يهود بني النضير الذين يتزعمهم أبوها ...

وعندما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة المنورة بأمر ربه - عز وجل - ونزل بمحلة « قباء » وتسامع أهل المدينة بقدومه، ووفدوا إليه مرحبين ... كان من بين الوافدين إليه أبوها « حُيَيّ » وعمها «أبو ياسر» وتقص السيدة « صفية » ما دار بين أبيها وعمها من حديث بعد رؤيتهما للنبي - ﷺ - فتقول: « كنت أحبَّ أولاد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ... فلما قدم رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، ونزل بقباء في بني عمرو بن النجار، وغدا عليه أبي وعمي مُغَلِّسين - أي: مبكرين قبل غروب الشمس - فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالّين كسْلانَين سَاقطَيْن يمشيان الهُوَيْنى...

تقول : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفت إلىَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ - أى : أهذا هو النبى الذى بشرت به التوارة ؟ - فقال أبى : نعم ، هو هو والله . فقال له عمى : أتعرفه وتُثْبتُهُ ؟ فقال له أبى : نعم . فقال له عمى : فماذا فى نفسك منه ؟ فقال له أبى : عداوته والله ما بقيتُ » .

وشاهدت السيدة صفية الأحداث والمصائب التى نزلت بقومها من بنى إسرائيل ، بسبب حربهم للرسول - ﷺ -

شاهدت فى مطلع عمرها جلاء بنى قينقاع ، ثم جلاء عشيرتها من بنى النضير ، ثم ما نزل ببنى قريظة من عقوبات عادلة بسبب نقضهم لعهودهم .

وشاهدت كيف أن أباها « حيى بن أخطب » كيف قاد اليهود فى حربهم للنبى - ﷺ - ولأصحابه ، وكيف أنه ذهب إلى مشركى قريش وإلى غيرهم ليحرضهم على محاربة المسلمين ، وكيف أن عاقبته كانت القتل بسبب إصراره على عداوة المسلمين إلى آخر لحظة من حياته ، وكان مقتله فى أعقاب غزوة بنى قريظة ...

وتزوجت السيدة « صفية » وهى دون الخامسة عشر من عمرها بواحد من زعماء قومها وهو « سلام بن مِشْكَم القُرَظِى » .

ثم انفصل عنها ، فتزوجت بزعيم آخر من زعماء قومها وهو «كنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيق النَّضَرى » وقد قتل فى غزوة « خيبر » . . .

وغزوة «خيبر » كانت فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة ، وفيها تم النصر للمسلمين بقيادة النبى - ﷺ - على يهود «خيبر» بعد معارك شديدة ، وبلغ عدد الذين استشهدوا فيها من المسلمين خمسة عشر شهيداً ، بينما قُتل من يهود خيبر أكثر من تسعين قتيلاً . . .

وكان من بين السبايا من نساء اليهود السيدة « صفية » ومعها ابنة عم لها ، وقد سار بهما بلال - رضى الله عنه - فى ساحة بها بعض القتلى من يهود خيبر ، ومن أقارب صفية وابنة عمها . . .

واستطاعت السيدة « صفية » أن تكتم حزنها وآلامها ، وأما ابنة عمها فقد رفعت صوتها بالعويل والنحيب . . .

وجئ بهما إلى الرسول - ﷺ - وهما على تلك الحال من الحزن ، فقال - ﷺ - لبلال معاتباً : [يا بلال ، أنُزِعت من قلبك الرحمة ، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟!] .

ثم قال - ﷺ - للسيدة صفية : [اختارى ، فإن اخترت الإسلام اخترتُك لنفسى ، وإن اخترتِ اليهودية فعسى أن أُعتقكِ فتلحقى بأهلك] .

فقالت : يا رسول الله ، لقد اخترت الإسلام ، وآمنت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رَحْلك ، وما لى فى اليهودية من مأرب ، ولقد خيرتنى بين الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلىَّ من العتق ، وأن أرجع إلى قومى ، فأمسكها رسول الله - ﷺ - لنفسه .

وبعد أن انتهت عدتها ، تزوجها رسول الله - ﷺ - ودخل بها - ﷺ - فى مكان يقال له « الصهباء » وهو فى طريقه من خيبر إلى المدينة المنورة .

وعاشت السيدة صفية - رضى الله عنها - فى بيت النبوة ، وازدادت إيماناً على إيمانها ، وإخلاصاً على إخلاصها ، وكانت تحسن صناعة الأطعمة التى يحبها النبى - ﷺ -

تقول السيدة عائشة - رضى الله عنها - : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، صنعت لرسول الله - ﷺ - طعاماً وهو فى بيتى ، فارتعدت من شدة الغيرة ، فكسرت الإناء ، ثم ندمت فقلت : يارسول الله ، ما كفارة ما صنعتُ ؟

فقال - ﷺ - : [كفارة ذلك :إناء مثل الإناء ، وطعام مثل الطعام] » .

وكانت - رضى الله عنها - رقيقة العاطفة ، تتألم عندما تشعر بالتعريض بها ، سمعت مرة من تتباهى عليها وتنسبها إلى اليهودية ، فذهبت إلى النبى - ﷺ - وهى تبكى ، وشكت إليه ما سمعت ،

فقال لها - ﷺ - على سبيل التسلية لها والترويح عنها : [هلا قلت لمن يفتخر عليك : زوجي محمد ، وأبي هارون ، وعمي موسى ؟] ونزل كلام النبي - ﷺ - على قلبها برداً وسلاماً .

وكانت - رضى الله عنها - تمتاز بالحلم والأناة والسماحة ، ومن الأدلة على ذلك : أن جارية لها قالت لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : يا أمير المؤمنين، إن سيدتي صفية تحب يوم السبت ، وتصل رحمها من اليهود .

فبعث عمر - رضى الله عنه - إلى السيدة صفية يسألها عن ذلك ، فقالت : أمَّا السبت ، فإني لا أحبه منذ أن أبدلني الله به يوم الجمعة ، وأمَّا اليهود ، فإن لي فيهم رَحماً فأنا أصلها .

ثم قالت لجاريتها : ما الذى حملك على أن تقولى ذلك لأمير المؤمنين؟ فقالت الجارية : الشيطان هو الذى حملني على ذلك ، فكان رد أم المؤمنين صفية على جاريتها : اذهبي فأنت حرة لوجه الله .

وعاشت السيدة صفية - رضى الله عنها - وفية لدينها ، مؤدية لحقوق خالقها - عز وجل - إلى أن توفيت سنة خمسين أو اثنتين وخمسين من الهجرة ، وقد جاوزت الستين من عمرها ، ودفنت مع أمهات المؤمنين بالبقيع - رضى الله عنهن جميعاً . . .

١٠ - أم المؤمنين
أم حبيبة بنت أبي سفيان - رضي الله عنها -

السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها - اسمها : « رَمْلَة » .

وأبوها : زعيم مكة أبوسفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس . . .

وأمها : صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس . . .

كان ميلاد السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها - قبل بعثة النبى - ﷺ - بعشر سنين - تقريباً - وحين بلغت سن الزواج تزوجت عبيد الله بن جحش . . .

وعندما بَعث الله - تعالى - نبيه محمداً - ﷺ - بدين الإسلام، كانت السيدة أم حبيبة وزوجها من السابقين إلى الإسلام، وهاجرا إلى الحبشة عندما اشتد الأذى بالمسلمين، وهناك ولدت ابنتها «حبيبة» التى كانت تُكنَّى بها، فيقال لها : « أم حبيبة » وغلبت هذه الكنية على اسمها الحقيقى « رَمْلَة » .

وفى الحبشة فاجأها زوجها عبيد الله بن جحش، بما أحزنها، فقد ارتد زوجها عن الإسلام واعتنق النصرانية، وانغمس فى الشهوات وفى شرب الخمر حتى هلك .

وعلِمَ النبى - ﷺ - بذلك، فأراد - وهو سيد الأوفياء والكرماء - أن ينقذ السيدة أم حبيبة من حزنها وآلامها ووحدتها وغربتها، فأرسل إلى النجاشى ملك الحبشة يطلب منه أن يكون وكيلاً عنه فى الزواج بالسيدة أم حبيبة . . .

وأرسل النجاشى إليها من يُخبرها بذلك، وطلب منها أن تختار الوكيل عنها فى زواجها بالنبى - ﷺ - فاختارت خالد بن سعيد بن العاص - رضى الله عنه -

وفى مساء أحد الأيام دعا النجاشى بعض المسلمين الذين يقيمون عنده فى بلاد الحبشة، فحضروا إليه يتقدمهم : خالد بن سعيد، وجعفر بن أبى طالب - رضى الله عنهما - وأخبر النجاشى المسلمين بأن النبى - ﷺ - قد طلب منه أن يكون وكيلاً عنه فى الزواج بأم حبيبة، وسألهم : من يكون وكيلاً عنها ؟ فأجابوا : إن وكيلها الذى اختارته هو خالد بن سعيد - رضى الله عنه -

فقال النجاشى : وهذا صداقها أربعمائة دينار، وقدمه إلى خالد بن سعيد، فقال خالد : وأنا قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله - ﷺ - وزوجته أم حبيبة، ثم ذهب إلى بيتها وقدم إليها صداقها . . .

وقام النجاشى بعمل وليمة قدم فيها للمسلمين العشاء، وقال لهم: اجلسوا فإن سُنَّة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على المتزوج .

وبذلك تم زواج النبى - ﷺ - من السيدة أم حبيبة، وبلغ أبا سفيان - وكان مازال مشركاً - ما فعله النبى - ﷺ - لتكريم ابنته أم حبيبة، فمدح النبى - ﷺ - مدحاً عظيماً .

وعاشت السيدة أم حبيبة في بلاد الحبشة ومعها ابنتها ما يقرب من عشر سنين، صابرة محتسبة ...

وفي السنة السابعة من الهجرة، وبعد غزوة خيبر، أرسل النبي - ﷺ - بعض أصحابه إلى بلاد الحبشة ليقابلوا النجاشي، وليطلبوا منه الإذن للمسلمين الذين يقيمون عنده بالعودة إلى المدينة المنورة، فقد نصر الله - تعالى - جنده، وقدموا الشكر لذلك الملك الذى أكرم المسلمين، وآمن بالرسول - ﷺ - وصدقه .

وكان من بين العائدين من الحبشة : جعفر بن أبي طالب، الذى قال الرسول - ﷺ - عندما رآه بالمدينة : [لا أدرى بأى الأمرين أفرح : بفتح خيبر أَمْ بقدوم جعفر] .

وكان من بينهم - أيضاً - : السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها - التى احتفل بوصولها إلى المدينة، وبدخولها البيت النبوى زوجة للنبى - ﷺ - عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقد أقام وليمة عظيمة، بمناسبة زواج النبى - ﷺ - بإحدى قريباته وهى السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها - وكان سنها عندما تزوجها الرسول - ﷺ - ثلاثين سنة .

ومن فضائل السيدة أم حبيبة أنها كانت لا تخشى فى الحق لومة لائم، وتقدم ما تراه متفقاً مع أحكام دينها على أقرب الناس إليها .

ولقد حدث فى أعقاب صلح الحديبية أن نقض المشركون بمكة بعض العهود التى اشتمل عليها الصلح، فأرسلوا إلى المدينة المنورة زعيمهم أبا سفيان - والد السيدة أم حبيبة - لكى يعتذر للرسول - ﷺ - عما حدث من قومه ...

وجاء أبو سفيان إلى المدينة، واتجه إلى بيت ابنته أم حبيبة، وحين دخل عليها أراد أن يجلس على فراش بداخل بيتها، فطوته عنه، فقال لها متعجباً: يا بُنيتى، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟! - أى: أأنت تريدين أن تأتى لى بفراش أحسن، أمْ بفراش أقل؟ -

فقالت له: يا أبى، هذا فراش رسول الله - ﷺ - وأنت رجل مشرك، فلا أحب أن تجلس عليه.

فقال لها أبوها: لقد أصابك بعدى شر، ثم خرج.

ومما لا شك أن موقفها من أبيها كان المقصد الأساسى منه أن يُراجع الأب نفسه، وأن يُبادر فى الدخول فى الإسلام.

ومع أن الفترة التى قضتها - رضى الله عنها - مع النبى - ﷺ - كانت قصيرة، ولا تتجاوز ثلاث أو أربع سنوات، إلا أنها استطاعت أن تَتعلَّم وتُعلِّم، وتحفظ الأحاديث النبوية وترويها، ولها فى كتب السُّنة النبوية خمسة وستون حديثاً.

وعاشت - رضى الله عنها - حتى استقر أمر الحُكم لأخيها من أبيها معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه -

وفى سنة أربع وأربعين من الهجرة أحست بدنو أجلها، فأحبت أن تلقى خالقها وليس فى نفس إحدى أمهات المؤمنين شئ منها، فاستغفرت لهن واستغفرن لها، ودعت لهن ودعون لها، ثم لحقت بربها، ودُفنت بالبقيع - رضى الله عنها -

١١ - أم المؤمنين
ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها -

السيدة « ميمونة » - رضى الله عنها - اسمها الحقيقى : بَرَّة بنت الحارث بن حَزْن . . . وقد سماها الرسول - ﷺ - « ميمونة » وهى ثانى زوجة من أمهات المؤمنين كان اسمها الحقيقى « بَرَّة » فغير الرسول - ﷺ - اسمها ، وكانت الأولى « بَرَّة بن الحارث » التى سماها الرسول - ﷺ - جويرية .

وأم ميمونة هى : هند بنت عوف بن زهير بن الحارث الكنانية ، وقد قالوا عنها : إنها أكرم عجوز فى الأرض أصهاراً .

فمنْ بناتها الشقيقات للسيدة ميمونة : « أم الفضل » لبابة الكبرى بنت الحارث ، زوج العباس بن عبد المطلب ، عم النبى - ﷺ - وأم الفضل - رضى الله عنها - كانت أول امرأة دخلت فى الإسلام بعد السيدة خديجة - رضى الله عنها -

ومنْ شقيقات السيدة ميمونة - أيضاً - : لبابة الصغرى، وهى زوج الوليد بن المغيرة ، وأم خالد بن الوليد - رضى الله عنه -

ومنْ أخواتها لأمها : أسماء بنت عُمَيس الخثعمية ، امرأة جعفر بن أبى طالب ، الذى استشهد فى غزوة « مؤتة » فتزوجها من بعده أبو بكر الصديق - رضى الله عنه -

كذلك من أخواتها لأمها : سلمى بنت عُمَيس، امرأة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، عم النبى - ﷺ -

وقد تزوجت السيدة ميمونة - رضى الله عنها - فى الجاهلية مسعود ابن عمرو الثقفى ثم طلقها، فتزوجت من بعده أبا رَهْم بن عبدالعزى العامرى، فتوفى عنها وهى فى السادسة والعشرين من عمرها .

وكانت - رضى الله عنها - قد أسلمت، وممن بايعن رسول الله - ﷺ - على الإسلام قبل هجرته إلى المدينة، إلا أنها بقيت فى مكة ولم تهاجر إلى المدينة، إلى أن جاء النبى - ﷺ - وأصحابه إلى مكة فى شهر ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة لأداء مناسك العمرة بعد أن منعهم المشركون من أدائها فى صلح الحديبية فى شهر ذى القعدة من العام السادس للهجرة.

وسمعت السيدة « ميمونة » بقدوم النبى - ﷺ - ومعه ألفان من أصحابه، جاءوا جميعاً يحدوهم الشوق لأداء مناسك العمرة، وقد قال لهم الرسول - ﷺ -: [رحم الله امرءاً أرى القوم قوة من نفسه] وسمعت بأن الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - كان يقود ركب رسول الله - ﷺ - فى داخل مكة وهو ينشد ويقول :

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله ∴ خلُّوا فكل الخير فى رسوله

سمعت بأن الرسول - ﷺ - وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين مُحلقين رءوسهم ومقصرين، دون أن يعتريهم أي خوف إلا من خالقهم - عز وجل -

سمعتْ « ميمونة » - رضي الله عنها - بكل ذلك، فأسرت إلى أختها وشقيقتها « أم الفضل » زوجة العباس عم النبي - ﷺ - بأنها ترغب في الزواج من النبي - ﷺ - لتشرف بأن تكون من أمهات المؤمنين، وأن رغبتها هذه نابعة من إيمانها العميق بأن الإسلام هو الدين الحق، وبأن الرسول - ﷺ - قد أرسله الله رحمة للعالمين . . .

وأخبرت « أم الفضل » الشقيقة الكبرى للسيدة « ميمونة » زوجها العباس عم النبي - ﷺ - بذلك .

ووافق - ﷺ - على الزواج بالسيدة « ميمونة » ودفع لها صداقاً مقداره أربعمائة درهم، وسماها - ﷺ - « ميمونة » بدلاً من « بَرَّة » حتى لا يقال خرج من عند « بَرَّة » .

وأقام النبي - ﷺ - ثلاثة أيام بعد أدائه للعمرة، فجاءه نفر من قريش ليقولوا له : قد انقضى أجلك - أي :انتهى وقت إقامتك بمكة - فاخرج عنا أنت وأصحابك .

فقال لهم : [وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟!] .

فردوا عليه في جفاء بقولهم : لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا .

فنزل ـ ﷺ ـ على كلمتهم وفاءً بالعهد، وأذنَ للمسلمين بالعودة إلى المدينة، وترك مولاه «أبا رافع» بمكة، ليلحق به في صحبة «ميمونة» ـ رضى الله عنها ـ.

وفى مكان يقال له «سَرِف» قرب التنعيم على مسافة ليست بالبعيدة من مكة، جاءت «ميمونة» فدخل بها ـ ﷺ ـ فى شهر ذى الحجة من السنة السابعة، ثم انصرف بها إلى المدينة المنورة.

قالت ـ رضى الله عنها ـ: «تزوجنى رسول الله ـ ﷺ ـ بسَرِف» وكان سنها عند زواج النبى ـ ﷺ ـ بها خمساً وثلاثين سنة، وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ.

وفى أعقاب زواجه بها نزل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾(١)

وعاشت ـ رضى الله عنها ـ فى بيت النبوة، تنهل من العلم النبوى، وتحفظ عن الرسول ـ ﷺ ـ ما يقوله، وتنفذ ما يطلبه، وتبتعد عما نهى عنه، بعيدة عن كل ما من شأنه أن يكون بين الضرائر من خلاف.

---

١ ـ سورة الأحزاب. الآية: ٥٢.

وروت عن رسول الله - ﷺ - ستة وسبعين حديثاً، وقيل: ستة وأربعون حديثاً، معظمها يتعلق بالعبادات وبشئون المرأة والزوج والبيت المسلم .

وعاشت - رضى الله عنها - تقية نقية، لا تبغى من وراء حياتها سوى طاعة الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - وكانت - رضى الله عنها - متمسكة أشد التمسك بأحكام دينها، وباتباع الرسول - ﷺ - فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

ونذرت بعد وفاة الرسول - ﷺ - أن تترك كل ما من شأنه أن يجعل المرأة تتمتع بجمالها . . .

وكانت تتردد بين الحين والحين بين مكة والمدينة، ويحلو لها المرور على « سَرِف » وهو المكان الذى جمعها بخير البشر، وقضت فيه أول ليلة من زواجها بالنبى - ﷺ -

وقد أوصت بأن تدفن فى ذلك المكان الذى شَهِدَ لقاءها بالنبى - ﷺ - لأول مرة فى حياتها وهو « سَرِف » وتوفيت - رضى الله عنها - وهى فى الثمانين من عمرها - وكانت قوية الجسد - وكانت وفاتها - على الأرجح - سنة إحدى وخمسين للهجرة، وصلى عليها ابن أختها حبر الأمة عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - وأوصى الذين حملوها إلى مثواها الأخير - بسرف - خارج مكة، بالترفق بها، حيث أرقَدُوها حيث أحبت .

وفيها قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ: « رحم الله ميمونة، أما إنها كانت والله مِنْ أتقانا لله، ومِنْ أوصلنا للرحم » .

رضى الله عنها وعن جميع أمهات المؤمنين فى جنات النعيم.

●●●●●
●●●
●●
●

كلمات واضحات عن تعدد الزوجات

وهذه الكلمات تنقسم إلى قسمين:

أولهما: تعدد الزوجات بالنسبة للرسول - ﷺ -.

وثانيهما: تعدد الزوجات بالنسبة لأتباعه - ﷺ -.

أما بالنسبة له - ﷺ - فكلامي يتضمن الحقائق الآتية:

أولاً: أن الرسول - ﷺ - تزوج السيدة خديجة - رضى الله عنها - وعمره خمس وعشرون سنة، وكان عمرها وقت زواجها به أربعين سنة...

وقد عاش معها حياة كلها المودة والرحمة، أكثر من خمسة وعشرين عاماً، دون أن يفكر فى أن يتزوج معها أخرى، ولو أنه - ﷺ - أراد ذلك لوجد من هى أصغر منها سناً...

ولكنه - ﷺ - انصرف عن التفكير فى الزواج بغيرها، وظل يذكرها فى حياتها وبعد وفاتها بكل خير، إلى أن لقى ربه - عز وجل -.

وكان من وفائه لها أنه كان إذا ذبح شاة، يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة ...

وعندما قالت له السيدة عائشة - رضى الله عنها -: « ألم تكن خديجة عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟ !

كان جوابه - ﷺ - عليها أن قال : [لا والله، ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى حين كذبنى الناس، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها . . .] .

ثانياً : جميع الزوجات اللاتى تزوجهن - ﷺ - بعد السيدة خديجة، كان زواجه بهن لحكَم سامية، ولمقاصد شريفة، ولغايات نبيلة، جمعت بين الرحمة والوفاء والتكريم . . .

فأم المؤمنين السيدة « سودة بنت زمعة » - رضى الله عنها - تزوجها - ﷺ - بعد فترة ليست بالطويلة من وفاة السيدة خديجة - رحمة بها، وشفقة عليها، وجبراً لخاطرها، وعزاءً لها عن زوجها وابن عمها، الذى هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها وتركها من بعده تعانى الترمل والوحدة فى بيئة معظم الذين من حولها لا يدينون بدين الإسلام الذى تدين هى به، وكانت - رضى الله عنها - وقت أن تزوج بها النبى - ﷺ - متقدمة فى السن، وغير ذات جمال . . .

وكانت تقول للنبى - ﷺ - بصدق وإخلاص بعد أن شعرت بعاطفة الأنثى، أن الرسول - ﷺ - قد تزوجها رحمة بها، وليس من أجل متعة جسدية . . .

وكانت تقول: « يا رسول الله، والله ما بى على الأزواج من حرص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك، وإنى أهب ليلتى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء » .

وأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - تزوجها - ﷺ - وهى فى مطلع شبابها إكراماً لأبيها أبى بكر الصديق، الذى كان أول من آمن بالرسول - ﷺ - من الرجال، والذى وهب حياته وأمواله لخدمة الحق الذى جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه، والذى مدحه الرسول - ﷺ - مدحاً عظيماً . . .

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين: أن رسول الله - ﷺ - قال: [إنَّ منْ أمَنِّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً - غير ربى - لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوةُ الإسلام ومودته . . .] .

وقد دخلت فى الإسلام وهى فى سن الصبا، لأنها نشأت بين أبوين مُسلمَين، وكانت تقول: « لم أعقل أبوى قط إلا يدينان بدين الإسلام » .

وعاشت - رضى الله عنها - زوجة للنبى - ﷺ - لمدة عشر سنين تقريباً، وفى بيتها لحق بربه - ﷺ - وقد رزقها الله - تعالى - العقل الراجح، والذكاء النادر، وكانت - رضى الله عنها - الفقيهة الأولى فى الإسلام، والمرجع الدقيق فى فهم القرآن الكريم والسُّنة المطهرة . . .

وأم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ تزوجها النبى ـ ﷺ ـ بعد أن استشهد زوجها « خنيس بن حذافة » من جرح أصابه فى غزوة « أحد » وكان سنها ست عشرة سنة، تزوجها ـ ﷺ ـ تسلية لها عما أصابها من حزن بعد وفاة زوجها، وتكريماً لأبيها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الذى قال فيه النبى ـ ﷺ ـ : [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه] .

تزوجها ـ ﷺ ـ بعد أن طال حدادها على زوجها ـ صاحب الهجرتين ـ ولم يتقدم أحد لخطبتها، فأكرمها ـ ﷺ ـ بهذا الزواج، وأحسن إليها إحساناً عظيماً . . .

وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة، التى كانت توصف بأم المساكين ـ رضى الله عنها ـ تزوجها ـ ﷺ ـ بعد أن استشهد زوجها «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب » ابن عم النبى ـ ﷺ ـ

وكان استشهاده فى « غزوة بدر » فَرَقَّ النبى ـ ﷺ ـ لحالها وتزوجها شفقة عليها، وقد توفيت بعد ثمانية أشهر من زواجها بالنبى ـ ﷺ ـ وهى فى الثلاثين من عمرها ـ رضى الله عنها ـ

وأم المؤمنين « هند بنت أمية بن المغيرة » التى تُكنى بأم سلمة ـ رضى الله عنها ـ والتى كان أبوها يسمى « بزاد الركب »

والتي كـانت هي وزوجـهـا أبو سلمة من السـابقين إلى الإسـلام، وهاجرا الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة .

تزوجها الرسول - ﷺ - بعد أن استشهد زوجها في أعقاب غزوة « أحد » وترك لها أربعة من الأولاد، فحزنت حزناً شديداً عليه، وأضربت عن الزواج، وقالت في شأن زوجها أبي سلمة - رضى الله عنه - : « غريب مات في أرض غربة، والله لأبكينه بكاء يتحدث الناس عنه » .

وكـان زوجـهـا ابن عـمـة رسـول الله - ﷺ - وكـان أخاً له من الرضاعة . . .

فتزوجها - ﷺ - تكريماً لها، ورعاية لها ولأولادها الصغار في غربتها بعيدةً عن أهلها بمكة، ووفاءً لزوجها الذى كان يقول وهو في الرمق الأخير من حياته : « اللهم ارزق زوجتي أم سلمة من بعدى رجلاً خيـراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها » فأجـاب الله دعاءه بزواجها من الرسول - ﷺ - .

وأم المؤمنين « زينب بنت جحش » ابنة عمة النبي - ﷺ - تزوجها النبي - ﷺ - بعد أن طلقها زوجها « زيد بن حارثة » الذى تربى في بيت النبي - ﷺ - وكان يقال له : زيد بن محمد، فنهى القرآن عن ذلك بقوله : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . . ﴾ .

تزوجها - ﷺ - بأمر ربه - عز وجل - ليُبطل عادة كانت متأصلة فى الجاهلية، وهى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج بالمرأة التى طلقها ابنه بالتبنى ...

ونزل قوله - تعالى -:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(١)

أى: فلما قضى زيد منها حاجته وطلقها وانقضت عدتها، زوجناك إياها، لتكون - أيها الرسول الكريم - أسوة حسنة فى إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المُتَبَنَّى بعد طلاقها، ولا يكون على المؤمنين إثم فى أن يتزوجوا بزوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم، وكان أمر الله لا مانع له .

وأم المؤمنين « جويرية بنت الحارث » سيدة بنى المصطلق - رضى الله عنها - تزوجها - ﷺ - بعد أن وقعت هى ومعظم قومها فى الأسر وبعد أن انتصر عليهم المسلمون فى السنة الخامسة أو السادسة من الهجرة.

---

١ - سورة الأحزاب . الآية : ٣٧ .

تزوجها - ﷺ - تكريماً لها - وهو سيد من يعرف للناس أقدارهم - وقد ترتب على هذا الزواج أن أطلق المسلمون كل الأسرى من بنى المصطلق، بعد أن صاروا أصهاراً للنبى -ﷺ-.

وقيل فى شأنها: « ما من امرأة كانت أعظم على قومها بركة من جويرية، فقد أُعتق بزواجها من رسول الله - ﷺ - أهل مائة بيت من بنى المصطلق ».

وأم المؤمنين « صفية ابنة حُيى بن أخطب » - رضى الله عنها - تزوجها النبى - ﷺ - فى أعقاب غزوة خيبر التى كانت فى السنة السابعة من الهجرة، أى: قبل وفاته - ﷺ - بأربع سنوات تقريباً.

وتزوجها - ﷺ - رحمة بها، وشفقة عليها بعد أن فقدت أعز أهلها من أب وزوج وغيرهما، وبعد أن أظهرت إسلامها عن محبة واقتناع، وبعد أن قال لها - ﷺ - مواسياً: [هل لك فى الزواج بى؟].

فقالت: « يا رسول الله، قد كنت أتمنى ذلك وأنا فى الشرك، فكيف إذا أمكننى الله من ذلك فى الإسلام؟ ».

وعندما كان البعض يُعرِّض بها بأنها يهودية، كان الرسول -ﷺ- يقول لها: [قولى زوجى محمد، وأبى هارون وعمى موسى].

وأم المؤمنين « أم حبيبة بنت أبى سفيان » زعيم مكة، والذى قاد

جيوشها - قبل إسلامه - لحرب المسلمين فى غزوات : بدر وأحد والخندق ... ولم يدخل فى الإسلام إلا فى عام الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة .

هذه السيدة الفاضلة دخلت فى الإسلام هى وزوجها عبيد الله بن جحش، ثم هاجرت معه إلى بلاد الحبشة .

وأنجبت منه ابنتها « حبيبة » وهناك تركها وترك الإسلام ودخل فى النصرانية ...

فحزنت لذلك حزنًا شديدًا كاد يُهلكها، واعتزلت الناس فى غربتها، وعلم النبى - ﷺ - بذلك، فأراد تكريمها وتسليتها ورعايتها فأرسل إلى النجاشى أن يكون وكيلاً عنه فى خطبة « أم حبيبة » لتكون زوجة له - ﷺ - وفرحت لذلك فرحًا شديدًا، ودفع النجاشى مهرًا لها أربعمائة دينار ...

ولم يدخل بها الرسول - ﷺ - إلا فى السنة السابعة بعد أن عادت من الحبشة إلى المدينة فى أعقاب غزوة خيبر .

وأم المؤمنين « ميمونة بنت الحارث » آخر أمهات المؤمنين، وشقيقة أم الفضل - امرأة العباس عم النبى - ﷺ - وأول امرأة دخلت فى الإسلام بعد خديجة ...

تزوج النبى - ﷺ - بالسيدة ميمونة بعد أن مات عنها زوجها وهى فى السادسة والعشرين من عمرها، تكريمًا لها ولأسرتها ولصلاحها

وتقواها . . . وكانت - رضى الله عنها - تدعو الله دائماً أن يجعلها من بين أمهات المؤمنين فأجاب الله دعاءها، وبلغ من حبها للإسلام وللرسول - ﷺ - أن أوصت بأن تُدفن بالمكان الذى قضت فيه أول ليلة من زواجها بالنبى - ﷺ -

---

ثالثاً : من كل ما سبق نرى بوضوح أن زواج النبى - ﷺ - بأمهات المؤمنين كان لمقاصد شريفة، ولغايات نبيلة، جمعت بين الرحمة والشفقة والتكريم والرعاية والحماية لنساء كانت لهن المكانة السامية فى الإسلام، ولم يكن زواجه - ﷺ - بهن لا من أجل المال، ولا من أجل الجمال، ولا من أجل متعة من متع الحياة الدنيا . . .

كان زواجاً فى بيت - كما جاء فى الصحيحين عن عائشة قالت -: « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى لحق النبى - ﷺ - بربه » .

كان زواجاً لا مكان فيه إلا للزهد فى زينة الحياة الدنيا، لأن الله - عز وجل - أمر رسوله محمداً - ﷺ - بعدم التطلع إلى ما يتطلع إليه غيره . . . وأمر نساءه - رضى الله عنهن - ألا يتطلعن إلى ما يتطلع إليه غيرهن من زينة الحياة الدنيا .

قال ـ تعالى ـ:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ
لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ
بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ
لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1]

كان زواجًا من خاتم الرسل وأفضلهم، وممن أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين: فحمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وتعرض في سبيل هداية الناس إلى الصراط المستقيم لما لم يتعرض له بشر من ألوان الأذى والاضطهاد والسفاهة والتكذيب... إلا أنه ـ ﷺ ـ صبر وصابر وجاهد إلى أن جاءه اليقين، ولم يكن في حياته ـ ﷺ ـ وقت لشهوات الحياة الدنيا ...

وعندما طلبن أمهات المؤمنين منه ـ ﷺ ـ التوسعة في مطالب الحياة، خيَّرهن ـ ﷺ ـ بين حياة الشظف التي يحياها، وبين أن يُسرحهن سراحًا جميلاً، فاخترن جميعًا الحياة معه ـ ﷺ ـ على

---

١ ـ سورة طه . الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

ما بها من عسر في الحصول على مطالب الحياة الدنيا، فكافأهن الله - تعالى - بالبقاء في عصمته - ﷺ - دون اختيار لغيرهن إلى نهاية حياته - ﷺ - وإذاً فزواجه - ﷺ - بأمهات المؤمنين كان لمقاصد شريفة، وليس لشهوة أو متعة كما يزعم الجاهلون ومن في قلوبهم مرض.

وأما حديثي عن تعدد الزوجات بالنسبة للأمة الإسلامية بصفة عامة، فيتضمن الحقائق التالية:

أولاً: أن تعدد الزوجات كان موجوداً في عهود الأنبياء السابقين وفي شرائعهم ...

ومن الأدلة على ذلك: أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - كان متزوجاً بالسيدة « سارة » ثم تزوج في حياتها وهي في عصمته بالسيدة « هاجر » وأنجب منها سيدنا إسماعيل - عليه السلام - ثم رزقه الله - تعالى - بعد ذلك بسيدنا « إسحاق » - عليه السلام - من زوجته « سارة » ...

وسيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - كان متزوجاً بأربع من النساء هن:

« ليئه » وأنجب منها ستة أولاد هم: رأوبين، و شمعون، و لاوى، و يهوذا، و يساكر، و ذبولون.

و « راحيل » وأنجب منها اثنين هما : يوسف ، و بنيامين .
و « زلفا » وأنجب منها اثنين هما : جاد ، و أشير .
و « بلها » وأنجب منها اثنين هما : دان ـ و نفتالى .

ثانياً : عندما أرسل الله ـ تعالى ـ رسوله محمداً ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق، كان تعدد الزوجات منتشراً بين العرب وغيرهم من القبائل والأمم الأخرى، بطريقة لا ضابط لها ولا نظام ...

فكان منهم من يتزوج بعشر من النساء أو بأكثر من ذلك أو بأقل، كل واحد على حسب هواه ومآربه ...

وقد جاءت شريعة الإسلام بما يُصلح هذه الفوضى التى تتعلق بتعدد الزوجات، وبما يضبط اضطرابها، وينظم حدودها، وسلكت شريعة الإسلام في ذلك مسلكاً حكيماً، فهى لم تحرم مسألة التعدد تحريماً مطلقاً، ولم تُبقها بقاءً مطلقاً دون قيد أو شرط، وإنما وضعت لتعدد الزوجات قيوداً وشروطاً وآداباً وضوابط ... يؤدى اتباعها إلى تحقيق سعادة الأسرة ...

ثالثاً : من الآيات القرآنية التى قيدت هذا التعدد، ووضعت له

الشروط والضوابط والآداب، قوله - تعالى -:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [1]

والمقصود بالخوف هنا: العلم أو الظن الراجح، وجواب الشرط في قوله - سبحانه -: ﴿ وإن خفتم ﴾ قوله - تعالى -: ﴿ فانكحوا ﴾.

وقوله - تعالى -: ﴿ تقسطوا ﴾ من الإقساط بمعنى العدل، يقال: أقسط فلان إذا عدل في حكمه . . .

ولفظ « اليتامى »: جمع يتيم، وهو الإنسان الصغير الذى مات أبوه، مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة أى: التى انفردت في جمالها وقيمتها عن غيرها .

والمقصود باليتامى هنا: يتامى النساء اللائى مات عنهن آباؤهن، وتولى تربيتهن وإدارة أموالهن بعض الأقارب، فإذا ما بلغن سن الزواج تزوجهن بعض هؤلاء الأقارب الأوصياء عليهن، دون أن يدفعوا لهن المهر أو الصداق الذى يجب أن يُدفع لأمثالهن ممن هن في رعاية آبائهن . . .

جاء في الحديث الصحيح أن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما -

---

١ - سورة النساء . الآية : ٣ .

سأل خالته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن هذه الآية فقالت له : « يا بن أختى ، هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله ، فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد ـ عندما تبلغ سن الزواج ـ أن يتزوجها ، ومن غير أن يقسط ـ أى : يعدل ـ فى دفع صداقها ، وفى إعطائها من الصداق ما يُعطى غيرها » .

قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ : فنُهوا عن ذلك ... ونزلت هذه الآية الكريمة .

وعلى هذا التفسير الذى أشارت إليه السيدة عائشة للآية يكون معناها : وإن غلب على ظنكم ـ أيها الأولياء أو الأوصياء ـ على يتامى النساء ، أنكم إذا تزوجتموهن لن تعطوهن حقوقهن من المهر وغيره ...

فاتركوا الزواج بهن لغيركم ممن يعطيهن حقوقهن ، وتزوجوا مَنْ تحبون من غيرهن ...

وقد وسَّع الله ـ تعالى ـ عليكم فى أحكامه بأن أباح لكم أن تتزوجوا باثنتين أو بثلاث أو بأربع ، دون زيادة على الأربعة ...

فإن غلب على ظنكم أنكم لن تعدلوا بين الزوجات إن تزوجتم بأكثر من واحدة ، فاكتفوا بالزواج بواحدة ، أو بما عندكم من الإماء ، فإن الاكتفاء بالواحدة أقرب إلى الابتعاد عن الجور والاعتداء ، وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ : جملة مستأنفة بمنزلة التعليل لما قبلها .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى الاكتفاء بالزوجة الواحدة عند غلبة الظن، بأنه لو تزوج بأكثر من واحدة لن يستطيع العدل بينهما أو بينهن لا في النفقة ولا في غيرها من الحقوق الزوجية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تعولوا ﴾ : مأخوذ من العَوْل بمعنى الميل إلى الظلم والجور . . .

أي : ذلك الذي ذكرناه لكم - أيها المؤمنون - من الاكتفاء بالزوجة الواحدة عند عدم العدل لو تزوجتم بأكثر من واحدة، أقرب إلى العدل وإلى راحة البال، وهدوء الحال .

وقد حكى الإمام الزمخشري عن الإمام الشافعي - رحمهما الله - أنه فسر قوله - تعالى - : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ : بألا تكثر عيالكم، فقال : « والذي يحكى عن الشافعي - رحمه الله - أنه فسر ﴿ ألا تعولوا ﴾ بأن لا تكثر عيالكم، ووجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم : ما نهم يمونهم إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الكسب، وحدود الورع، والكسب الحلال، والرزق الطيب .

ثم قال الإمام الزمخشري - رحمه الله - : « وكلام مثله - أي : الإمام الشافعي - من أعلام العلم، وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين، جدير بالحمل على الصحة والسداد » .

رابعـاً : أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاماً وآداباً منها :

أ ـ أن التعدد بعد أن كان قبل الإسلام غير مقيد بعدد معين، جاءت شريعة الإسلام فحددته بأربع نسوة دون زيادة على ذلك، وكان هذا التحديد شديداً على بعضهم بعد أن ورثوه عن آبائهم، وأجدادهم، إلا أن جميع المسلمين امتثلوا لأمر الله ـ تعالى ـ وطبقوا ما جاء في هذه الآية الكريمة .

فقد روى أبوداود في سننه عن قيس بن الحارث قال : « أسلمت وعندى ثمان نسوة، فأتيت النبى ـ ﷺ ـ فذكرت له ذلك، فقال له ـ ﷺ ـ : [اختر منهن أربعاً] .

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : « أسلم (غيلان الثقفي) وعنده عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره النبى ـ ﷺ ـ أن يختار منهن أربعاً، وأن يفارق سواهن » .

وعن نوفل بن معاوية قال : « أسلمتُ ومعى خمس نسوة، فسألت النبى ـ ﷺ ـ فقال : [فارق واحدة وأمسك أربعاً] » .

وقد أجمع الفقهاء على أنه : لا تجوز الزيادة على أربع بالنسبة لجميع المسلمين، أما بالنسبة للنبى ـ ﷺ ـ فالزيادة على أربع من الخصوصيات التى منحها الله ـ تعالى ـ للنبى ـ ﷺ ـ

ب ـ كما أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، أن الله ـ تعالى ـ وإن

كان قد أباح التعدد وحدد نهايته بأربع بحيث لا يجوز الزيادة عليهن، إلا أنه ـ سبحانه ـ قد قيد هذه الإباحة بالعدل بينهن فى النفقة والكسوة وفى غير ذلك مما تستلزمه الحياة الزوجية، فإن عجز عن ذلك لم يجز له التعدد ...

وللإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ كلام حسن فى ذلك، فقد قال: « قد أباحت شريعة الإسلام للرجل الزواج بأربع من النساء، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا فلا يجوز الاقتران والزواج إلا بواحدة، لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة... ﴾ لأن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل واحدة من نسائه حقها، اختل نظام المنزل، وساءت معيشة العائلة، إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة.

وقد قال ـ ﷺ ـ: [من كان له امرأتان لم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل].

ثم قال ـ رحمه الله ـ: « فعلى العقلاء أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد، وحفظ النساء من الأمور التى تؤدى بهن إلى الأقوال والأفعال التى لا تليق بالمرأة المسلمة ...».

جـ ـ ذكر القرآن الكريم فى آية أخرى، أن تحقيق العدالة الكاملة

من كل الوجوه بين الزوجات المتعددات من الأمور غير المستطاعة، فقال - تعالى -:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ... ﴾[1]

والخطاب هنا للرجال الذين يتزوجون بأكثر من زوجة واحدة .

والمعنى: ولن تستطيعوا - أيها الرجال - أن تعدلوا بين زوجاتكم المتعددات عدلاً تاماً كاملاً فى المحبة وفى الميل القلبى، مهما بذلتم فى ذلك من جهد، لأن الميل النفسى لا يملكه الإنسان ولا يستطيع التحكم فيه .

ومادام الأمر كذلك، فلا تميلوا كل الميل إلى إحدى زوجاتكم، وتهجروا الأخرى، فتتركوها فى هذه الحالة كالمرأة المعلقة، أى: كالمرأة التى لا هى بذات زوج فتنال معه حقوقها الزوجية، ولا هى بمطلقة فترجو من الله - تعالى - أن يرزقها بالزوج الصالح الذى يكرمها ...

وفى الحديث الشريف عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : «كان رسول الله - ﷺ - يقسم بين نسائه ويعدل، ثم يقول: [اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك] . ولا تعارض بين هذه الآية، وبين الآية التى فى أوائل السورة التى

---

١ - سورة النساء . الآية : ١٢٩ .

تقول : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ لأن المقصود بالعدل فى قوله - تعالى - : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ... ﴾ : الميل القلبى والمحبة الذاتية ، والتآلف الشعورى الداخلى .

والمقصود بالعدل فى قوله - تعالى - : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... ﴾ : العدل فى النفقة وفى الكسوة وفى السكنى وفى المبيت وفى غير ذلك من الأمور التى تقتضيها المعيشة الزوجية الظاهرة.

خامساً : لا يرتاب العقلاء فى كل زمان ومكان فى أن المرأة لاتحب أن تشاركها امرأة أخرى فى زوجها ...

كما لا يرتاب العقلاء - أيضاً - فى أن تعدد الزوجات ، يكلف الزوج تكاليف اقتصادية ، واجتماعية ، أكثر وأشق ، وأشد فى التعب واضطراب البال ...

أما أن المرأة فى كل زمان ومكان تكره أن تشاركها امرأة أخرى فى زوجها ، فهذا أمر تؤيده الحقائق والواقع والمشاهدة ، حتى بالنسبة لزوجات وبنات الأنبياء - عليهم الصلاة السلام -

ومن الأمثلة لذلك : أن السيدة « سارة » زوجة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هى التى أشارت عليه بأن يتزوج من « هاجر »

وبعد أن تزوجها وحملت بابنها إسماعيل، بدأت الغيرة الشديدة تسرى فى قلبها، وضيقت عليها لدرجة أن سيدنا إبراهيم رحل بها ومعهما ابنهما إسماعيل ـ عليه السلام ـ إلى مكة المكرمة بجوار المسجد الحرام ...

ويشير القرآن إلى ذلك فى تلك الدعوات الخاشعات التى تضرع بها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى خالقه، ومنها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1]

وفى الحديث الصحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «لمَّا كان بين إبراهيم وبين أهله ـ سارة ـ ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ـ هاجر ـ ... حتى قدم مكة، فوضعها تحت دوحة ـ أى: تحت شجرة كبيرة ـ ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل... ونادته من ورائه فقالت: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. فقالت ـ رضى الله عنها ـ رضيتُ بالله ولن يُضيعنا».

قال الإمام الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ وهو يشرح هذا الحديث: «وكان السبب فى ذلك أن «سارة» كانت قد وهبت «هاجر»

---

١ ـ سورة إبراهيم . الآية : ٣٧ .

لإبراهيم، فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت «سارة» منها، فحلفت سارة لتقطعن من «هاجر» ثلاثة أعضاء، فاتخذت «هاجر» منْطقاً - أى: حزاماً - فشدت به وسطها وهربت ... فخرج بها إبراهيم إلى مكة».

وما دار بين أمهات المؤمنين من غَيْرة فيما بينهن بالنسبة للقرب من النبى - ﷺ - ذكرت نماذج منه الأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها ما جاء فى صحيح البخارى عن أنس - رضى الله عنه - قال: «كان النبى - ﷺ - عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَة - أى: بآنية - فيها طعام، فضربت التى النبى - ﷺ - فى بيتها يد الخادم، فسقطت الصَّحْفَة فانفلقت، فجمع النبى - ﷺ - قطع الصحفة، ثم أخذ يجمع فيها الطعام ويقول - ﷺ -: [غارَتْ أمُّكُم] ثم استوقف الخادم حتى أُتى بصحفة من عند التى كان - ﷺ - عندها، فدفع بها إلى التى كُسرت صحفتها، وأمسك المكسورة فى بيت التى كَسرت فيه».

وجاء فى صحيح مسلم - رحمه الله - عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «افتقدت النبى - ﷺ - ذات ليلة، فظننتُ أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسستُ ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد، يقول: [سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت].

قالت - رضى الله عنها - فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنى لفى شأن، وإنك لفى شأن آخر!!».

وجاء في الحديث الصحيح : أن السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - عندما بلغها أن زوجها « على بن أبى طالب » يرغب في خطبة بنت « أبى جهل عمرو بن هشام » جاءت إلى أبيها - ﷺ - فقالت له : « يا أبى ، يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ؟ ! » وقصت عليه ما بلغها . . .

فصعد - ﷺ - المنبر وخطب فى الناس خطبة جاء فيها : [إن فاطمة بنت محمد - ﷺ - بضعة منى - أى : قطعة منى - وإنى أكره مايسوءها ، وإنى لستُ أُحرم حلالاً ولا أُحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ، وبنت عدو الله - أبى جهل - عند رجل واحد أبداً] فترك على بن أبى طالب خطبته لابنة أبى جهل .

وأمَّا أن تعدد الزوجات يؤدى بالنسبة للزوج إلى متاعب ومصاعب وتكاليف مالية واجتماعية وعائلية ومعيشية . . . أكثر تعباً وأشد اضطراباً فى الأحوال . . .

فهذا - أيضاً - من الحقائق التى يؤيدها الواقع ، لأنه من المعرف أن مسئولية الزوجة الواحدة أيسر من مسئولية الزوجتين ، وأن الإنفاق على بيت واحد أو على أسرة واحدة أخف من الإنفاق على بيتين أوعلى أسرتين ، وأن الصلة بين أبناء الزوجة الواحدة ، أكثر التئاماً وانسجاماً من الصلة التى تكون بين أولاد من زوجتين أو أكثر . . .

ويكفى كشاهد على ذلك أولاد يعقوب - عليه السلام - فإنهم لمَّا

كانوا من أربع أمهات دب بينهم الخلاف، وقالوا ـ كما قص علينا القرآن ـ :

﴿ ... لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (١)

والحق، أنه إذا كان صلاح الرجل في الاكتفاء بزوجة واحدة، ثم تزوج بزوجة أخرى معها انقياداً لهواه ولشهواته ولمآرب أخرى لانفع فيها لا لدينه ولا لدنياه ... فإنه في هذه الحالة سيقع في المتاعب والمشقات واضطراب البال، وغالباً ما يعجز عن توفير الرعاية الأدبية والاجتماعية، والمادية لمن هم تحت رعايته ...

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع من يعول] .

ولقد أثر عن بعض الحكماء أنه قال: « زوج المرأة الواحدة في سرور، وزوج المرأتين في شرور، ومن لم يصوِّبني فليجرِّب » .

سادساً : ليس معنى أنَّ تعدد الزوجات له متاعبه ومصاعبه وتكاليفه الشاقة ...

---

١ ـ سورة يوسف . الآيتان : ٨ ـ ٩ .

ليس معنى ذلك : أن نحاربه، وأن نتخذ منه قضية لغمز ولمز شريعة الإسلام بسوء نية، وبجهل مطبق بالشروط والآداب التى وضعتها شريعة الإسلام لإباحة هذا التعدد .

إن شريعة الإسلام لم تجعل تعدد الزوجات ركناً من أركانها، أو واجباً من واجباتها، أو سُنة من سننها، وإنما جعلته من الأمور المباحة التى يصح للمسلم أن يأخذ بها متى اقتضت الضرورة ذلك، ومتى كان قادراً على تحقيق شروطها وضوابطها وأحكامها وآدابها .

وإن هذا التعدد قد تحدث ظروف ترجحه أو تستلزمه لخير الأسرة وصلاحها واستقرارها . . .

ومن هذه الظروف : مرض الزوجة مرضاً يستحيل معه قيامها بالحقوق الزوجية، التى يؤدى عدم القيام بها إلى اختلال الأسرة واضطرابها . . .

فيضطر الزوج فى هذه الحالة إلى الزواج بأخرى، مع رضا الأولى بذلك عن طواعية واختيار .

ومن هذه الظروف : أن يرى الزوج امرأة يهمه أمرها وحالها لأنها من أقاربه ـ مثلاً ـ وأن هذه المرأة قد فقدت زوجها ـ وهو أيضاً من ذوى رحمه ـ وقد ترك لها زوجها أطفالاً صغاراً، لا تستطيع هى وحدها رعايتهم، وقد تتعرض للفتن فى مستقبل حياتها . . .

فيُقدم هذا الزوج على الزواج بتلك المرأة البائسة التى يهمه أمرها وأمر أولادها من زوج سابق هو أخوه أو قريبه . . .

وهذا ما فعله النبى - ﷺ - عند زواجه بالسيدة «سودة بنت زمعة» وبالسيدة «أم سلمة» - رضى الله عنهما -

إن تعدد الزوجات جاءت إباحته فى كتاب الله - تعالى - بدليل قوله - سبحانه -: ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ... ﴾ .

وجاءت إباحته فى سُنة رسول الله - ﷺ - بدليل ما فعله - ﷺ - مع الذين أسلموا وهم متزوجون بأكثر من أربعة، فقد أمرهم أن ينفصلوا عما زاد عن هذا العدد، امتثالاً لما جاء فى الآية الكريمة السابقة.

وجاءت إباحته بإجماع المسلمين، بدليل اتفاق الصحابة والتابعين وجميع فقهاء المسلمين فى مختلف العصور على جواز التعدد، بالشروط والضوابط والآداب التى قررتها شريعة الإسلام .

إن العيب ليس فى تشريع إباحة تعدد الزوجات - كما يزعم الزاعمون والجاهلون بأحكام شريعة الإسلام - وإنما العيب فى طريقة التطبيق، وفى سوء استعمال الحق الذى رخَّص الله - تعالى - به فى ظروف خاصة، وفى أحوال معينة، وفى ضرورات يستلزمها هذا التعدد .

العيب فى أولئك الذين يقصدون بالتعدد الاستكثار من الشهوات ومن المطامع والملذات، تبعاً لأهوائهم ولمآربهم الدنيئة التى

يقصدون من ورائها المُتعة الزائلة، أو الأموال الحرام، أو غير ذلك من كل ما هو مرذول ومبغوض عند العقلاء والعاقلات من الرجال والنساء .

وإصلاح العيوب في المجتمع لا يكون بحظر التعدد، ولا بسن القوانين، ولا بتحريم ما أحله الله ـ تعالى ـ وإنما يكون ـ كما يقول الحكماء العقلاء ـ بتهذيب النفوس، وبتنوير الأذهان، وبتعليم الناس حقائق دينهم الحنيف، وأحكام شريعتهم السمحاء التي جاء بها الرسول ـ ﷺ ـ من عند ربه ـ عز وجل ـ لإصلاح أحوالهم، ولسعادتهم في دنياهم وآخرتهم . . .

إصلاح العيوب يكون بتعليم الناس بإخلاص واجتهاد، وترغيب وترهيب، ما يجب عليهم نحو خالقهم، وما يجب عليهم نحو أنفسهم، وما يجب عليهم نحو أبنائهم وأولادهم وأزواجهم . . .

ما يجب عليهم نحو المجتمع الذي هم قطعة منه : بأن يعملوا بكل الوسائل التي أحلها الله ـ تعالى ـ على نشر الخير والفضائل والبر والتقوى، والأمن والرخاء في هذا المجتمع بكل استقامة وعفاف . . .

ونحن نرى أن مسألة تعدد الزوجات في زمننا هذا، قد قلت كثيراً عما كانت عليه منذ عشرات السنين . . .

ولعل من أسباب ذلك : أن الناس ـ والحمد لله ـ قد كثر فيهم عدد

الذين يفهمون أحكام شريعة الإسلام فهماً سليماً، إلى جانب تقديرهم لتكاليف الحياة الزوجية، واتساع إدراكهم لمسئولياتهم أمام مطالب الحياة التي تختلف من وقت إلى آخر، ومن جيل إلى آخر في غلائها وفي رخائها، وفي يسر الحصول عليها وفي عسرها . . .

وكل ذلك سيجعل الغالبية العظمى من أبناء المجتمع لا يُقْدمون على تعدد الزوجات، إلا عند الضرورة القصوى التي أباحتها شريعة الإسلام .

« والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم »

*****

***

**

*

فهرست الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	١ - سارة زوجة إبراهيم - عليه السلام -
١٧	٢ - أم موسى - عليه السلام -
٣٧	٣ - قصة امرأتين من أرض مدين .
٥٧	٤ - مريم ابنة عمران .
١٠٧	٥ - بلقيس ملكة سبأ .
١٣١	٦ - زليخا امرأة العزيز .
١٧١	٧ - خَوْلة بنت ثعلبة .
١٨١	أمهات المؤمنين
١٩٣	١ - « خديجة بنت خويلد » - رضي الله عنها -
٢٠٥	٢ - « سودة بنت زمعة » - رضي الله عنها -
٢١٥	٣ - « عائشة بنت أبي بكر » - رضي الله عنها -
٢٢٥	٤ - « حفصة بنت عمر » - رضي الله عنها -
٢٣٥	٥ - « زينب بنت خزيمة » - رضي الله عنها -
٢٣٧	٦ - « أم سلمة » - رضي الله عنها -
٢٤٩	٧ - « زينب بنت جحش » - رضي الله عنها -
٢٥٧	٨ - « جويرية بنت الحارث » - رضي الله عنها -
٢٦٣	٩ - « صفية بنت حُيي » - رضي الله عنها -

الموضوع	الصفحة
١٠ - « أم حبيبة بنت أبى سفيان » - رضى الله عنها -	٢٦٩
١١ - « ميمونة بنت الحارث » - رضى الله عنها -	٢٧٥
كلمات واضحات عن تعدد الزوجات .	٢٨١
- تعدد الزوجات بالنسبة للرسول - ﷺ -	
- تعدد الزوجات بالنسبة لأتباعه - ﷺ -	

*****
***
**
*

الأزهـــر
مجمع مطابع الأزهر الشريف

رقم الإيداع
٢٠٠٤ / ٢٢٣٨٣

الكتاب القادم

التحفة النقية

في الفتاوى الفقهية

الجزء الثاني

تأليف الدكتور
محمود امبابي أمين
وكيل الأزهر الشريف

الأزهر
مجمع مطابع الأزهر الشريف

الثمن : ٣ جنيهات